

الحمد لله



نجيب محفوظ

المحاذ

مطبعة خان مكتبة مصر

الشحاذ

تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية
وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

الطبعة
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الجيزة

دار مصر للطباعة
سميد، جودة الطبع وشركاء

سحاب ناصعة البياض تسبح فى محيط أزرق ، تظلل خضرة
تغطى سطح الأرض فى استواء وامتداد ، وأبقار ترمى تعكس
أعينها طمأنينة راسخة ، ولا علامة تدل على وطن من الأوطان ،
وفى أسفل طفل يمتطى جوادا خشبيا ويتطلع إلى الأفق عارضا
جانب وجهه الأيسر وفى عينيه شبه بسمة غامضة . لمن اللوحة
الكبيرة يا ترى ؟ . ولم يكن بحجرة الانتظار أحد سواء . وعما
قريب يأنف ميعاد الطبيب الذى ارتبط به منذ عشرة أيام . وفوق
المتضدة فى وسط الحجرة جرائد ومجلات مبعثرة ، وتدلت من
الحافة صورة المرأة المتهمة بسرقة الأطفال . رجع يتسلى بلوحة
المرمى . الطفل والأبقار والأفق . رغم أنها صورة زينة رخيصة
القيمة ولا وزن إلا لإطارها المذهب المزخرف يتهاويل بارزة .
وأحب الطفل اللاعب المستطلع والأبقار المطمئنة ولكن ازدادت
شكواه من ثقل جفونه وتكاسل دقابه قلبه . وها هو الطفل ينظر
إلى الأفق ينطبق على الأرض . دائما ينطبق على الأرض من أى
موقف ترصده ، فيا له من سجن لا نهائى . وما شأن هذا الجواد
الخشبى ؟ ولم تمتلئ الأبقار بالطمأنينة ؟ ! . ولفت سمعه فى
الخارج حركة أقدام ثابتة ، ثم ظهر التمرجى عند الباب قائلا :

— تفضل .

ترى هل يتذكر رغم مرور ربع قرن من الزمان . ؟ ها هي

حجرة استقبال الطبيب الخطير ، وما هو يقف وسط حجرته
باسما ، بمقامته المتوسطة النحيلة والوجه الفامق السمرة
والعينين البراقتين والشعر القصير المغفل . لم يكد يتغير عما
كان فى حوش المدرسة . وما زالت زاوية قمه تنحرف فى سخرية
مذكرة بمرجه المطبوع الذى كان يضاهى تفوقه الحاسم .

— أهلا عمر ، تغيرت حقا ولكن إلى أحسن !

— حسبتك لن تذكرنى !

وتصافحا بحرارة .

— ولكنك عملاق بكل معنى الكلمة ، كنت طويلا جدا
وبالامتلاء صرت عملاقا ..

وكان يرفع رأسه إليه وهو يحادثة فابتسم عمر فى سرور

وردد :

— حسبتك لن تذكرنى !

— أنا لا أنسى أحدا فكيف أنساك أنت !

تحية كريمة من طبيب خطير . وكثيرون يسمعون عن
الطبيب الناجح ولكن هل يعرف المحامى الفذ إلا أصحاب
القضايا ؟ !

وضحك الطبيب وهو يتفحصه وقال :

— لكنك سممت جدا . كأنك مدير شركة من العهد الخالى
ولا ينقصك إلا السيجار .

ضحكت أسارير الوجه الأسمر المستطيل الممتلىء ، وفى شئ
من الارتباك ثبت نظارته فوق عينيه وهو يرفع حاجبيه
الكثيفين .

— إنى سعيد بلقياك يا دكتور .

— وأنا كذلك وإن تكن مناسبة رؤيتى ليست بالسارة .

وتقهقر إلى مكتبه المختفى تحت أطلال من الكتب والأوراق

والانوات المكتبية النفيسة ثم جلس وهو يشير إليه بالجلوس :

... فلنؤجل حديث الذكريات حتى نطمئن عليك .

وفتح دفتره وأمسك بالقلم :

... الاسم : عمر الحمزاوى ، محام ، والسن ؟

وضحك الطبيب عاليا وهو يقول مستدركا :

... لا تخف ، الحال من بعضه !

... ٤٥ عاما .

... على أيام المدرسة كان الشهر يعتبر فارقا فى العمر له

خطورته أما الآن فيا قلبى لا تحزن ، هل من أمراض خاصة فى

الأسرة .

... كلا ، إلا إذا اعتبرت الضغط بعد الستين مرضا خاصا .

وشبك الطبيب ذراعيه وقال بجدية :

... هات ما عندك ..

مسح عمر على شعره الغزير الأسود الذى لا ترى شعيرات

سوالفه البيضاء إلا يحد البصر وقال :

... لا أعتقد أنى مريض بالمعنى المألوف .

فازداد اهتمام الطبيب وهو يمعن فيه النظر باستمرار .

... أعنى أنى لا أشكو عرضا من الأمراض المرضية المألوفة .

... نعم .

... ولكنى أشعر بضمود غريب ..

... أهذا كل ما هنالك ؟

... أظن هذا .

... لعله من الإجهاد المستمر .

... ربما ولكنى غير مقتنع تماما ..

... طبعا وإلا ما شرفتنى ..

... الحق إنه نتيجة لذلك الضمود ماتت رغبتى فى العمل بحال

لا تصدق ..

— استمر ..

— ليس تعباً بالمعنى المألوف ، يخيل إلى أنى ما زلت قادراً على العمل ولكنى لا أرغب فيه ، لم تعد لى رغبة فيه على الإطلاق ، تركته للمحاسب المساعد فى مكتبى ، وكل القضايا تؤجل عندى منذ شهر ..

— ألم تفكر فى القيام بإجازة ؟

فواصل حديثه وكأنه لم يسمعه :

— وكثيراً ما أضيق بالدينا ، بالناس ، بالأسرة نفسها ، فافتنعت بأن الحال أخطر من أن أسكت عنها .

— إذن فالمسألة ليست ..

— المسألة خطيرة مائة فى المائة ، لا أريد أن أفكر أو أن أشعر أو أن أتحرك ، كل شيء يتمزق ويموت ، فخطر لى على سبيل الأمل أننى سأجد لذلك سبباً عضوياً .

قال الطبيب باسم :

— ما أجمل أن تحل مشاكلنا الخطيرة بحبة بعد الأكل أو ملعقة

قبل النوم ..

مضى به إلى حجرة الكشف . وأخذت مينة من البول ثم خلع عمر ملايسه ورقد على السرير الطبي . وتناوبت الأوامر فأبرز لسانه ، وفتح بشد الجفنين عينيه ، ونقرت الأصابع الرشيقة على مواضع فى الصدر والظهر وضغطت بشدة على أماكن فى البطن ، واستعملت السماعة ومقياس الضغط ، وتنفس بعمق ، وسعل ، وهتف : أه من الحلق مرة ومن الأمعاء مرة أخرى . وجعل يختلس النظرات إلى وجهه ولكنه لم يقرأ شيئاً . وفرغ الرجل من كشفه فسبقه إلى مكتبه وما لبث أن لحق به . وأطلع الطبيب على نتيجة التحليل ثم فرك يديه وابتسم ابتسامة عريضة وقال :

— عزيزى المحامى الكبير ، لا شىء ألبتة .
تحرك جناحا أنفه الطويل الحاد وازداد وجهه توردا :
— ألبتة ؟

— ألبتة !

ولكنه سرعان ما قال بحذر :
— أخشى أن يكون الأمر أخطر مما تتصور
فقال الدكتور ضاحكا :

— ليست قضية أهولها لضاعفة الأجر؟
فضحك عمر وهو يرمقه بأمل فأكد الآخر قائلا :
— حسن ، إذن فاعلم أنه لا شىء ..

فتساءل عمر فى قلق :

— هل يقضى على بأن أسجن فى عيادات الطب النفسى ؟
— لا نفسى ولا دياولو !

— حقا ؟

— أجل ، أنه مرض برجوازي إن جاز لى أن أستعير اصطلاحا
حديثا مما يستعمل فى جرائدنا ، ليس بك من مرض ..
ثم بتمهل :

— ولكنى أرى فى الأعماق مقدمات لأكثر من مرض ، والحق
أنك جئت فى الوقت المناسب ، متى ألح عليك الخمود ؟
— منذ شهرين وربما أكثر قليلا ولكن الشهر الأخير كان
محزنا حقا .

— دعنى أصف لك حياتك كما أستنبطها من الكشف ، أنت
رجل ناجح ثرى ، نسيت المشى أو كدت ، تأكل فاخر الطعام ،
وتشرب الخمور الجيدة ، وترهق نفسك بالعمل لحد الإرهاق ،
ودماغك دائما مشغول بقضايا الناس وأمالك ، وأخذ القلق
يساورك على مستقبل عملك ومصير أموالك ..

ضحك عمر بفتور وقال :

صورة صادقة فى جماليتها ولكنى لم أعد أهتم بشيء ..

— حسن ، لا شيء بك ، ولكن العدو رابض على الحدود ..

— كإسرائيل ؟

— وعند الإهمال سيدهمنا الخطر الحقيقى ..

— دخلنا الجد !

— اعتدل فى الطعام .. قلل من الشراب . التزم برياضة

منتظمة كالمشى .. فلن تلقى ماتخشاه ..

وانتظر وهو يفكر ولكن الدكتور لم يحرك ساكنا فسأله :

— ألن تكتب لى دواء ؟

— كلا ، لست قرويا لأقنعك بأهميتى بدواء لا يضر ولا يفيد ،

الدواء الحقيقى بيدك أنت وحدك ..

— وهل أعود كما كنت ؟

— وأحسن ، أنا رغم إرهاقى بالعمل ما بين الكلية والمستشفى

والعيادة أمشى كل يوم نصف ساعة على الأقل ، وأتبع نظاما

مناسبا فى الغذاء .

— لم أشعر يوما أنى تقدمت فى السن .

— الكبر مرض ، ولئن تشعرت به ما دمت تدفعه بحسن

السلوك ، هنالك شبان فوق الستين ، المهم أن نفهم حياتنا ..

— أن نفهم حياتنا ؟ !

— أنا لا أتفلسف طبيعة ..

— ولكنك تداوى بنوع من الفلسفة ، ألم يخطر لك يوما أن

تتساءل عن معنى حياتك ؟

فضحك الدكتور عاليا ثم قال :

— لا وقت عندي لذلك ، وما دمت أؤدى خدمة كل ساعة لإنسان

هو فى حاجة ماسة إليها فما يكون معنى السؤال ؟ !



(هناك شبان فوق الستين ، المهم أن نفهم حياتنا)

ثم بجديّة ودود :
 — قم فى إجازة .
 — إجازتى متقطعة عادة كأنها وىك أئد يستمر طيلة شهر الصيف .
 — لا ، خذ إجازة طويلة بالمعنى ، ومارس نظام معيشتك الجديدة ، وسوف تبدأ بعد ذلك متجددا .
 — هذا ممكن .
 — توكل على الله ، ليس بك إلا نذير من الطبيعة فاستمع إليه ، وعليك أن تنقص وزنك عشرين كيلو ولكن على مهل ودون منغ .
 ضرب على ركبتيه وانحنى انحناءة خفيفة تؤذن بالتأهب للقيام ولكن الدكتور بأدبه :
 — مهلا ، أنت آخر زوار اليوم فلنجلس قليلا معا .
 اعتدل فى جلسته باسماء ، دكتور حامد صبرى إنى أعرف ما تريد ، تريد طى ربع قرن من الزمان ، وأن تضحك من أعماق قلبك مرة أخرى .
 — ما أجمل أيام زمان !
 — الحقيقة يا دكتور ما أجمل كل زمان باستثناء (الآن) ،
 — صدقت ، التذكر شىء والمعاناة شىء آخر .
 — ثم يتبدد كل شىء بلا معنى .
 — لكننا نحب الحياة ، هذا هو المعنى .
 — شد ما كرهتها فى الأيام الأخيرة !
 — وها أنت تبحث عن الحب المفقود ، خبرنى أما زلت تذكر أيام السياسة والإضراب والمدينة الفاضلة ؟
 — طبعاء ، وقد ولت جميعا ، ولم يبق إلا سوء السمعة .
 — ومع ذلك فقد تحقق حلم كبير ، أعنى الدولة الاشتراكية .

— نعم ..

الدكتور وهو يبتسم :

— وكنت تظهر لنا بأكثر من وجه ، الاشتراكي المتطرف ،
الحامي الكبير ، ولكن وجهها منك رسخ في ذاكرتك أقوى من أي
سواه ، هو عمر الشاعر !

ابتسم ابتسامة عصبية ليداري امتعاضا مباحثا وتمتم :

— يا لسوء الحظ !

— هجرت الشعر ؟

— طبعاً .

— ولكنك طبعتم ديوانا فيما أذكر .

فخفض عينيه حتى لا يقرأ فيهما توتره وهيبته وقال :

— عبث طفولة لا أكثر ولا أقل .

— بعض زملائي من الأطباء الشعراء يضحون بالطب في

سبيل الشعر ..

ذكرى غبراء كالطقس المنحوس فمتى يسكت عنها ! .

وواصل الدكتور :

— وأذكر من أقراننا القدامى مصطفى المنياوي ، ماذا كنا

نطلق عليه ؟

— الأصل الصغير ! ، ما زلنا أصدقاء لا نكاد نفترق ، وهو

اليوم صحفي نابه ومؤلف إذاعي تلفزيوني ..

— زوجتي مغرمة به جدا ، وقد كان متحمسا مثلك ، ولكن

رأس الحماس كان عثمان خليل بلا جدال ..

تجههم وجه عمر . لطمته الذكرى بقبضة من حديد ، ثم ضمغم :

— إنه في السجن !

— نعم ، عمر طويل في السجن ، أظنه كان زميلك في كلية

الحقوق ؟

—تخرجنا فى عام واحد ، أنا ومصطفى وعثمان ، الحق إنسى
لا أحب الماضى !
فقال بنبرة ختامية :
— فلتحب المستقبل .
ثم وهو ينظر فى ساعته :
— من الآن فصاعدا أنت أنت الطبيب .
فى حجرة الانتظار رفع مينييه مرة أخرى إلى الصورة ، لم
يزل الطفل ممطيا جواده الخشبي متطلعا إلى الأفق . وهذه
البسمة الغامضة فى عينيه أهى للأفق ؟ وما زال الأفق منطبقا
على الأرض ، فماذا يرى الشعاع الذى يجرى ملايين السنين
الضوئية ؟ . وثمة أسئلة بلا جواب فأين طبيبها ؟
وفى الخارج أمام العمارة بعيدان سليمان باشا ركب الكاديلاك
السوداء فتحركت به كياخرة عروس النيل .

الوجوه تتطلع إليه مستفسرة . حتى قبل أن ترد تحيتك .
حنان رقيق مخلص ولكن ما أقطع الضجر . الحموضة التي يفسد
المواطف الباقية . ولاحت من ورائهم الشرفة الكبير المظلة على
النبيل من الدور الرابع . وتبدى عنق زوجك من طاقة فسقائها
الأبيض غليظا متين الأساس . واكتظت وجنتاها بالدهن ، وقفت
كتمثال ضخيم ملء بالثقة والمبادئ ، وضاعت عينها الخضراوان
تحت ضغط اللحم المطوق لهما ، أما ابتسامتها فما زالت تحتفظ
ببراءة رائقة ومحبة صافية

— قلبي يحدثنى بأن كل شيء طيب ..

إلى جانبها وقف مصطفى المنياوى فى بدلتة الشركسكين
رافعا نحوك وجهه البيضائى الشاحب وعينييه الذابلتين وصلعته
التاريخية ، وقد بدا ضئيلا فى نحافته إلى جانب الزوجة
المحكمة البناء .

— حدثنا من زميل المدرسة ، ماذا قال وهل عرفك ؟

واعتمدت بثينة بكوعها على كتف تمثال برونزى لامرأة
باسطة الذراعين فى هيئة مرحبة ، وتطلعت إلى أبيها فى تشوق
بعينيها الخضراوين ، وهى تكرر صور أمها عندما كانت فى
الرابعة عشرة ، بقامتها الرشيقة ، ولكن يبدو أنها لن تتعملق مع
الأيام ولن تسمح للدهن بأن يغطى على صفائها . تساءلت بنظرة

كما تتفاهم معك كثيرا دون كلام ، أما جميلة - أختها الصغيرة -
فعمقت على دبتها بين مقعدين كبيرين ولم تهتم بالقادم .
وجلسوا جميعا ثم قال بهدوء :
- لا شيء .
هتفت زينب بنبرة جامدة .
- الحمد لله ، طالما قلت إنك بحاجة إلى الراحة .
فأحنقه انتصارها بلا سبب ، وخاطب مصطفى - مشيرا
إلى زوجته - قائلا :
- هي المسئولة أولا وأخيرا !
ولما فرغ من تلخيص رأى الدكتور عاد يؤكد رأيه :
- هي المسئولة أولا وأخيرا !
فقال مصطفى بحبور :
- يا له من علاج هو باللعب أشبه !
ثم مستدركا فى أسف :
- لكن الطعام والشراب ! .. اللعنة على الزمن ..
لم تلعن وأنت لم تصب بسوء ؟ ماذا يفعل المقبل على رحلة
غامضة ! . الحائر بين الحب والشجر . الذى لم يحدث نفسه بعد
بطريقة شافية . وقال لمصطفى :
- الدكتور حامد سأل عن الأصبع الصغير ..
ثم بعد أن سكنت عاصفة الضحك :
- وهنيئا لك أعجاب زوجته !
ابتسم مصطفى فى سرور هيبانى لمعت به أسنانه التاسعة
البياض :
- أصبحت بفضل الإذاعة والتلفزيون كالأبواء ولا بد أن
أصيب ضعيفى المتاعة .
وذكر الآخر فى السجن . حتى حساسية الضمير يدركها



(الحمد لله ، طابا قلبك إنك بحاجة إلى الراحة)

الضجر . يوم احترقت بلهيب الخطر . لكنه لم يعترف . رغم
الاهوال لم يعترف . وذاب في الظلمات كأن لم يكن . وأنت تعرض
في الترف . وتنهض الزوجة رمزا للمطبخ والبنك . فسل نفسك
آلا يضجر النيل تحتنا .

— بابا ، هل تستعد للسفر ؟

— سنمرح كثيرا وسوف أعلم أختك السباحة كما علمتكم فيما

مضى ..

— حتى البراميل !

ها هي أمك تحاكي البرميل . والأفق يحاكي السجن . والحرية
استكنت وراء الأفق . ولم يبق من أمل إلا الضمير المعذب . وقال
مصطفى .

— زوجي تفضل رأس البير للأسف ومشى لن يظفر بإجازة
شهر كامل إلا إذا أصيب بسرطان ممتاز ..

وتساءلت جميلة راقعة رأسها عن الدبة :

— متى نسافر يا بابا ؟

ولاح له مصطفى كنصب تذكاري للحب والزواج . كان
المشير والمعين والشاهد . وكل يوم يؤكد صداقته له وللأسرة .
ولم يدر شيئا بعد من الحياة التي تجرف قاع النهر

— ونكرنى الدكتور بأيام الشعر !

فضحك مصطفى قائلا :

— الظاهر أنه لم يسمع عن روائى الدرامية الحالية ؟

— وددت لو أحكى له قصتك مع الفن .

— ترى هل يؤمن النطاسى الكبير بالفن ؟

— زوجته مغرمة بك ، ألا تقنع بذلك ؟

— إذن فهي مغرمة باللب والفشار .

وكانت زينب تراقب السفرجى من خلال الديكور المقوس

وما لبثت أن قالت .

— هلموا إلى العشاء .

وأعلن عمر أنه سيكتفى بشريحة من صدر الدجاج وفاكهة

وكأس واحدة من الويسكى فتساءل مصطفى .

— والبطارخ على سبيل المثال هل ألتهمها وحدي ؟

وراح مصطفى يتحدث عن إقطار مستر تشرشل الذى فوهت

به إحدى الصحف فى أثناء زيارته لقبرص . وقد تردد قليلا عند

بدء الطعام ثم ما لبث أن أكل وشرب بلا حساب . ولم تستطع

زينب كذلك أن تقاوم الإغراء وشربت زجاجة من بيرة ، وواظبت

بثينة على اعتدائها التى تعتده أمها نوعا من الاعوجاج . وقال

مصطفى :

— الطعام أجدر من الجنس بتفسير السلوك البشرى ..

فنسى عمر نفسه وقال بمرح لأول مرة :

— يخيل إلى أنك مصاب بعقدة الدجاج ..

وعقب العشاء لم يجتمع شملهم أكثر من نصف ساعة ، تامت

بعدها جميلة ، ومضت الأم وبثينة إلى زيارة فى نفس العمارة

فخلا عمر إلى مصطفى فى الشرفة الكبيرة حيث استقرت بينهما

زجاجة ويسكى ووعاء به ثلج فوق منضدة زجاجية السطح . ولم

تند عن الأشجار حركة واحدة ، وانتشرت حول المصابيح غلالة

ترايبية . وبدأ النمل من ثغرات أعالي الشجر ساكنا هاءدا شاحبا

معدوم المرح والمعنى . وشرب مصطفى وحده وتمتم باستيائه :

— يد واحد لا تصفق .

فأشعل عمر سيجارة وهو يقول :

— ما أفزع الجو ، لم أعد أحب شيئا حبا خالصا .

فقال مصطفى ضاحكا :

— أذكر أنك كرهتني يوما ما ..

فقال دون توقف عند قوله :

— أخشى أن يتكرر موقفى تجاه العمل إلى مالا نهاية .
— عليك بالرجيم والرياضة ، ولن يهون عليك أن تخون بشيئة
وتقع فى اليأس .

— سوف أشرب كأسا أخرى .
— لا بأس ، ولكن كن أكثر حزما فى الاسكندرية.
— تقول اننى كرهتك يوما ما ، أنت كاذب كأكثر أهل
صناعتك !

— كنت تضيق بى على عهد إيمانى الشديد بالفن .
— كنت وقتذاك أعانى نزعة من نفسى .
— أجل ، كنت تقاتل حبه الكامن فىك وتهجره بقسوة . وكنت
أنا فى ذلك الوقت وجها من وجوهه جديرا بإثارة الشجبون .
— ولكنى لم أكرهك ، وجدتك فقط ضميرا معذبا .
— وقد احترمت أزمته بعقل متسامح . وصممت على
الاحتفاظ بك وبالفن معا ..

ثم وهو يضحك :
— ولعلى أرحتك كثيرا عندما قررت نبذ الفن بقوة مذهلة ،
وها أنا أبيع اللب والفسار عن طريق الصحف والإذاعة
والتلفزيون على حين تنهض أنت قمة من قمم الحمامة فى ميدان
الأزهار !

ذكريات معادة . كالقيظ والغبار . دورات محكمة الإغلاق .
والطفل الباسم يتوهم أنه يمتطى جوادا حقيقيا .
— ضجر يضجر اضجر فهو طجرجى . طجرجة والجميع
ضجرون وضجرات ..

— الرجيم والرياضة !
— يا لك من مضحك .

— هي رسالتي في الحياة ، التسلية ، والجمع تسلية ، قديما
كان للفن معنى حتى أراحه العلم من الطريق فأفقدته كل معنى ..
— أما أنا فقد نبذته دون تأثر بالعلم ..
— إذن لماذا نبذته ؟
ماكر كالقيظ . وهذا الليل لا شخصية له . وضجيج الطريق
ولا طرب . الماكر يسأل وهو يعلم .
— دعني أسألك أنت عن السبب ؟
— قلت وقتذاك أنك تريد أن تعيش وأن تنجح ..
— إذن لماذا طرحت السؤال ؟
ها هي نظرة اعتراف تقلق في عينيه الذابلتين من رمد
قديم .
— أنت نفسك تنبذه بسبب العلم وحده ؟
— زدني علما ؟
— عجزت عن أن تحتفظ له بمكانة محترمة على مستوى
العلم !
فضحك مصطفى بصفاة مفسول بالويسكي وقال :
— لا تخلو حركة هروبية من فشل ، ولكن صدقني أن العلم
لم يبق شيئا للفن ، ستجد في العلم لذة الشعر ونشوة الدين
وطموح الفلسفة ، صدقني أنه لم يبق للفن إلا التسلية ،
وسينتهي يوما بأن يصير حلقة ترفيهية مما يستعمل في شهر
العسل .
— ما أجمل أن أسمع ذلك . انتقاما من الفن لا حبا في العلم .
— اقرأ أي كتاب في الفلك أو في الطبيعة أو في أي علم
من العلوم وتذكر ما تشاء من المسرحيات أو دواوين الشعر ثم
أختبر بدقة إحساس الخجل الذي سيجتاحك ..
— ما أشبه هذا الشعور بما ينتابني عندما أفكر في القضايا

والقانون ..

— هذا الشعور المخجل لا يعاينه إلا الفنان المنبوذ من

الزمن ..

فتتأشب عمر ثم قال :

— اللعنة ، إنى أشم فى الجو شيئاً خطيراً ، ويرعبنى

إحساس حركى داخلى بأن بناء قائماً سيتهدم ..

ملاً مصطفى كأساً جديدة وقال :

— لن نترك بناء كى يتهدم !

فقال نحوه مقطياً وسأله :

— ماذا تظن بس ؟

— الإجهاد والتكرار والزمن .

— وهل فى الرجيم والرياضة الكفاية ؟

— كل الكفاية ، أمتقد ذلك من كل قلبك ..

— ٢ —

من الآن فصاعدا أنت الطبيب . فانت حر . والفعل الصادر
من الحرية نوع من الخلق . حتى ولو يكن مقاومة مستمرة
لشهوات البطن . ولنقل أن الإنسان لم يخلق ليكتظ بالأطعمة .
وبتحرر المعدة تتحرر الروح كذلك وتحلق . لذلك ترق السحب و
ترنم عواصف أغسطس الصاخبة . ولكن ما أشد الزحام والرطوبة
ورائحة العرق . وأجهدك المشى وناءت به قدماك كأنما تتعلمه
لأول مرة . والأعين ترمق العملاق وهو يوسع الخطى حتى ينال
منه التعب فيجلس على أول أريكة تصادفه على طريق الكورتيش.
وعيناك ترمقان الناس بعد عسى ربع قرن . هكذا شهد الشاطئ
مولد آدم وحواء ولكن لا يدري أحد من سيخرج من الجنة . وقديما
قطع الشاب الطويل التحيل ابن الموظف الصغير القاهرة طولا
وعرضا على قدميه دون تدمير . وسلسلة طويلة من أبيائه وأجداده
تهرات أقدامهم من معاندة الأرض ثم تساقطوا من الإعياء .
وقريبا سيخرج الماضي من السجن فيضاعف عذاب الوجود

— عثمان ، لماذا تنظر إلى هكذا ؟

— ألا تريد أن تلعب الكرة ؟

— أنا لا أحب الرياضة .

— لا شيء غير الشعر ؟ !

وأين المهرب من نظراتك الثاقبة ؟ وما الجدوى من

مجادلتك؟ وانت تعلم أن الشعر هو حياتي وأن تزواج شطرين
يتجنب نغمة ترقص لها أجنحة السماوات .

— أليس كذلك يا مصطفى ؟

وهتف المراهق الأصلع :

— هذا الوجود من حولنا ليس إلا تكويننا فنيا ..

ويوما هتف عثمان في حال من التجلي .

— عثرت على الحل السحري لجميع المشاكل ..

واندفعنا برعشة حماسية إلى أعماق المدينة الفاضلة .
واختلكت أوزان الشعر بتفجرات مزلزلة . واتفقنا على ألا قيمة
ألبة لأرواحنا . واقترحنا جاذبية جديدة غير جاذبية نيوتن يدور
حولها الأحياء والأموات في توازن خيالي لا أن يتطير البعض
ويستاهوي الآخرون . وعندما اعترضتنا دورة فلكية معاكسة
انتقلنا من خلال الحزن والفشل إلى المقاعد الوثيرة ، وارتقى
العملاق بسرعة فائقة من الفورد إلى الباكار حتى استقر أخيرا
في الكاديلاك ، ثم أوشك أن يفرق في مستنقع من المواد الدهنية .
وها هي الشمس تتراعى ملتصقة الشراريب فتكون قبة
هائلة دانية مختلطة الألوان ، تستلقي تحتها الأبدان شبه
العارية . وتنتشر في الجو رائحة آدمية عميقة الأثر في الحواس
مذابة في رائحة البحر المتحدية تحت شمس تخلت عن بطشها .
ووقفت بثينة بقدها المشقوق ، مبللة الجسد ، محمرة الذراعين
والساقين ، مدسوسة الشعر في غطاء أزرق من النايلون ، مفترة
الثغر لفرحة الشاطئ . وأنت شبه عار ، مغطى الصدر بدغل
من الشعر الكثيف الأسود ، وقد استكنت بين ساقيك جميلة وهي
تبني هرما من الرمال . واضطجعت زينب على مقعد جلدي طويل
وراحت تطرز أفواف وردة على رقعة كانفا ، متباهية بتضخم
صحي فلم تعدم نظرات مراهقة بلهاء تحوم حول صدرها الناهض.



ووقفت بثينة بقدها الممشوق ، ميللة الجسد ، محمرة
الذراعين والساقين ، مدهوسة الشعر في غطاء أزرق

عزيزى مصطفى . قرأت تعليقاتك الفنية الأسبوعية . بديعة
ولاذعة وموحية . تقول أنك بائع لبن وقشار ؟ . مهلا ، لكنك من
أصل كريم ، وصاحب قلم تمرس طويلا بالنقد الجدى والمسرحى ،
فحتى تسلياتك لها نكهة خاصة . أشكرك على سؤالك عنا ولكن
خطابك جاء موجزا لدرجة مزعجة ولعلك امتيرته تكملة شكلية
لمقالاتك ولكنى فى مسيس الحاجة إلى شرثرة لا نهائية . زينب عال
وهى تقرئك السلام وتذكرك بالدواء الذى رجتك أن تحصل عليه
من الخارج بواسطة أى من زملائك الرحل . متاعب مصرانها هينة
فى رأى ولكنها مغرمة بالدواء كما تعلم . . بثينة سعيدة وكم
أود أن أتسلل إلى عقلها ولكن أسعدنا بغير جدال هى جميلة التى
لا تفهم شيئا بعد . ولو أنك رأيتنى لدهشت للتقدم الذى أحرزته .
فقد نقصت ثمانية كيلو ومشيت آلاف الكيلومترات . . حبت
بأطنان من اللحوم والبطارخ والزبد والبيض وعرفت الاشتياق
إلى الطعام بعد شبع طويل لدرجة الموت . ولأنك بعيد فإننى لا
أجد من أحادثه كما أحب ولذلك كثيرا ما أحدث نفسى . كلام زينب
أعقل مما يجب ، لماذا يثيرنى الكلام العاقل فى هذه الأيام ؟
الشخص الوحيد الذى أعجبنى حديثه رجل مجنون ، يرفع يده
بالتحية على طريقة الزعماء طوال الطريق . ويلقى خطبا
عجيبة ، وقد التقيت به فيما وراء شاطئ جليم بكيلو على الأقل
فبادرنى :

— ألم أقل لك ؟

فأجبت باهتمام :

— فعلا ..

— ولكن ما الفائدة ؟ .. ستمتلىء المدينة غدا بسمك موسى ولن
تجد موطئا لقدم .

— على البلدية أن ..

لكنه قاطعنى بحدة :

— لن تفعل البلدية شيئاً ، سوف ترحب به تشجيعاً للسياحة ،
وسوف يتكاثر بصورة مذهلة حتى يضطر السكان الأصليون
للهجرة فيمتلئ الطريق الزراعى بطوابير المهاجرين ورغم ذلك
كله سيواصل ثمن السمك صعوده ..

وتمنيت أن أتسلل إلى رأسه أيضاً . لفته لا تقل غرابة عن
لغة العلماء الأفاضل أصحاب المعادلات ، وما أضيعنا نحن العقلاء
بين الاثنين ، نحن الذين نعيش فى السحابة المجسمة ، لا نعرف لذة
الجنون ولا أعاجيب المعادلات . رغم ذلك فأنا رب أسرة سعيدة .
تعال وشاهدنى وأنا أناجى بثينة على حين تهاجمنا جميلة
بالرمال . وبیتنا فى جليم مريح جدا . وحنينى إلى الويسكى
يشتد بصورة ملحوظة . وأمس ونحن فى الكابينة مساء تراسى
إلينا صوت جارنا وهو يتحدث قائلاً :

— العمارات ستؤم .

اصفر وجه زينب وحدجتنى بنظرة استغاثة فقلت لها :

— لدينا من المال الشيء الكثير ..

فتساءلت :

— وهل تنجو الأموال ؟

— لقد تحصنا ضد القدر بتأمينات شتى ..

فراحت تتساءل فى قلق :

— ومن أدرانا ! ..

فقاطعتها :

— بالله خبرينى كيف سمعت إذن لهذا الحد ؟ !

فهتفت بى :

— كنت فى شبابك مثلهم لا تتكلم إلا عن الاشتراكية ، وهى

ما زالت فى دمك !

ثم كررت على أن أذكرك بالدواء . مصطفى ، أنا لا يهمنى شيء ، لا يهمنى شيء صدقنى ، لا أدرى ماذا حصل لى ، لن يهمنى شيء ، المهم عندي أن نلتقى لنستأنف هذرتنا ومناقشاتنا الجميلة التى لا معنى لها . وقد رمت لى الصدفة بحديث غرامى فى الظلام دون أن يفتن لوجودى أصحاب الشأن . قال الرجل :

— عزيزتى نحن منحدرون إلى خطر مؤكد ..

فقال المرأة :

— هذا يعنى أنك لا تحبنى .

— لكنك تعلمين تماما أننى أحبك .

— إذا تكلمت بعقل فهذا يعنى أنك لم تعد تحبنى .

— ألا ترين أننى مسئول وأننى جاوزت الشباب ؟

— قل أنك لم تعد تحبنى ..

— سوف نهلك معا ونخرب بيتنا ..

— ألا تكف عن المواقف ؟

— لك زوجك وبناتك ولى زوجتى وأبنائى ..

— ألم أقل لك أنك لم تعد تحبنى ؟

— ولكننى أحبك .

— إذن فلا تذكرنى بغير الحب .

وابتعدت وأنا أتخيل الدراما الممتعة الفاضحة وأضحك لجرأة

المرأة وتهافت الرجل . ولكنهما ذكرانى بصديق قديم اسمه الحب .

يا إلهى ما أطول العمر الذى مضى دون حب . وماذابقى لنا منه

عدا ذكريات محنطة ؟ . كم أتمنى أن أتسلل إلى قلب عاشق . وأنا

كما تعلم لم أحب فى حياتى سوى زينب ولكن كان ذلك منذ

عشرين عاما . وما أذكره من ذلك التاريخ حركات ومواقف لا

مشاعر وانفعالات . وأذكر أننى قلت لك يوما (عيناها تصعقانى)

وأذكر أنك لم تتخل عنى أبداً ، وأن حالتى كانت جتونية . ولكن
ذكرى الجنون غير الجنون نفسه . كنت محموم الفكر بركانى
القلب ساهر الليل . ورفعتى العذاب إلى الشعر وسحت من عينى
دموع وتوثقت أسبابى بالسما . ولكن كل أولئك ذكريات محنطة .
وها أنا اليوم أكافح للتملص من المواد الدهنية ولا أرى فى زينب
العزيزة إلا تمثالا لوحدة الأسرة والبناء والعمل . وثق من أنه لا
يهمنى شيء . فليأخذوا العمارات الثلاث والأموال السائلة .
ولن أزعج أنفى أستهيى بذلك بتأثير من المبادئ التى أوشكت
يوماً أن تقذف بنا جميعاً إلى السجن مع عثمان ، فأيام الجهاد
نفسها لم تعد إلا ذكريات محنطة ، ولكنى لا أدرى ماذا حل بى
أو ماذا غيرتى ، فأبشر يا عزيزى بأننى أتقدم نحو شفاء جسمانى
واضح ولكنى أقترب فى الوقت نفسه من جنون طريف والعقبى
لك .

... لا تنس أن تكتب له عن الدواء .

... فعلت يا عزيزتى ..

ما أطفك يا بثينة . براعم صدرك تشهد للدنيا بحسن
الذوق . ولعلى من جيل محافظ نوعاً فماذا أعدت أمك ؟ .. من
المحزن أنك لم تعرفى من الدنيا شيئاً ، وأننى صفتك كالكنار فلم
تتجاوزى سيارة المدرسة . وهذه النظرة الحاملة ماذا وراها ؟ ألم
تضنى على بحلم رغم الصراحة التى تبارك أحاديثنا ؟ . وكيف
تؤثر فيك رائحة الأبدان العارية ؟ ، والغزل المتطاير بين الأمواج ،
يا إلهى ادفع المجتمع إلى مجارة أفكارها وفعالها حتى لا تتعرض
لسوء . وقال لها وهى تمد ساقيهما العاريتين تحت مقعده المغروس
فى الرمل :

... لم نهناً ببعضنا هكذا من قبل !

... الحق عليك ..

— لم أبق في المكتب طيلة العمر إلا من أجلكم .
فانطرحت عل كوعيهـا معرضة بطنها وصدرها للشمس المتألقة
في سماء صافية على حين تهادت فوق منحني الخليج سحابة
بيضاء وحيدة . وقالت الأم دون أن ترفع رأسها عن الكانفاه :
— قولى له أن صحته اليوم أهم من أى شيء ..
— حتى من تأميم العمارات ؟
فأجابته متحدية مقطبة :
— حتى من تأميم العمارات ..
فقال بنبرة تقريرية مستسلمة :
— ما أجمل أن نتكيف مع مجتمعنا ..
ولم تنبس بكلمة . ومرت أمام المجلس حسناء معجبة بنفسها
فخطف منها نظرة أشاعت في حواسه بهجة ياسمينية .
— عندما أعود إلى حالتى الطبيعية سأحاول أن أفهم الحياة
فهـما جديدا يقرنها بالسعادة الحقيقية ..
— لنسأل الله أن يحفظنا من كل سوء ..
— الله يحب أن نسأله الخير للناس جميعا ..
واسترق إليها نظرة مأكرة ثم قال ضاحكا :
— ولكن كيف يستجيب الله للدعاء في هذه الحال ؟
وأدركت ما يعنيه ولكنها لم تعلق بكلمة واحدة . وتناسى
الموضوع كله واستسلم لأفكاره . خف الوزن ودب النشاط ولكن
ما أفضع القلب . الذباب والعمل والزوجة . ويوماً ستجد بثينة
ما يشغلها عنك ومثلها جميلة التى تشيد الأهرام من الرمال .
خبرنى بالله ماذا تريد ؟ . ولماذا يخيم الصمت رغم الضجيج ؟ .
ولم يتنبأ شيء فى صدره بمخاوف هوائية ؟ . وفى كل لحظة
تشعر بأن صلة تتمزق محدثة صوتا مزعجا ، وأن قاشما يتزعزع
وأن أسنانك توشك أن تتساقط . وسوف تفقد الوزن فى النهاية

وتشجيع في الفضاء . اشدد قبضتك على الأشياء ، وانتظر إليها طويلا فعمما قليل ستختفى ألوانها ، ولن يكتريث لك أحد . وها هي الأمواج تطيح بأهرام جميلة المشيدة من الرمال . والهواء يطير الصحف التي لا حقيقة ثابتة فيها إلا صفحة الوفيات . ويقول لك الرجل (هذه هي قضيتي أعهد بها إلى سيد المحامين) . يا للسخرية ! .. لم يبق لنا يا حضرات المستشارين إلا أن نعمل معا في السيرك القومي .

— لماذا تسرح يا عزيزي ؟

— لا شيء ..

— هل أنت بخير تماما ؟

— أظن ذلك .

— ولكن خبرتي الطويلة بك تقول إنك في حاجة إلى عناية ..

— يجب أن نحترم الخبرة ..

— هل أحدثك عن رأي الطباعة ؟

وهل للطباعة رأي ؟

— قالت أن الرجال السعداء الناجحين عرضة للعين ..

— وهل تصدقين ذلك ؟

— كلا طبعاً ولكن الحيرة تحملنا أحيانا على تجربة أى شيء !

— إذا فما عليك إلا أن تتفقى مع شيخة زار !

— ألا ترى أن السخرية لم تكن من شيمتك ؟

فقال باسم :

— قليل من السخرية يقيد ولا يضر !

— لن أثقل عليك يا عزيزي .

وهم عائدون تأخرت به قليلا عن البننتين وقالت :

— إليك خيرا سارا ..

تطلع إليها في يأس خفى .

— اكتشفت فى بشينة شيئاً لم يكن فى الحساب !
— غير ما اكتشفت فى العام الماضى ؟
— بلى ، أنها يا عمر شاعرة !
رفع حاجبيه الكثيفين فى دهش :
— نعم .. لاحظت أنهماكها فى الكتابة ، وأنها تمزق ما تكتب
ثم تعيد كتابته ، وأخيراً أعترفت لى بأنها تكتب شعرا ، فضحكت
وقلت لها ..
وتردبت فسألها :
— ماذا قلت لها ؟
— قلت لها أنك بدأت كذلك شاعرا ..
فتساءل مقطبا :
— ألم تخبريها كيف انتهيت ؟
— لكن أن تكون بنت فى سنها شاعرة شيء جميل .
— فعلا ..
— يجب أن تقرأ شعرها وأن تزودها بنصائحك ..
— لو انصائحى قيمة لأجدت معنى !
— ولكنك سعيد بالخبر ؟
— جدا ..

ولكن الاضطراب غطى على السعادة المؤقتة . وهذا احساس
عاصف كأنه نوع من الذعر . وثمة جيشان يرعى الصدر لم يقربه
منذ عشورين عاما . وناداهما إلى الشرفة المطلة على البحر فجاءت
فى بلوزة مزركشة وبنطلون بنى يضيق تدريجيا حتى يلتصق
بالساقين فوق الرسفين . أجلسها قبالتها وهو يقول :

— رأيت أن أدعوك لتشهدى معى الغروب ..

همت بالاعتذار فيما بدا له ، وكان يعلم أن ذاك وقت خروجها
مع أمها وأختها لنزهة الأصيل على الكورنيش ، ولكنه قال :

— ستلحقين بهما سريعا ، ألا يحب الشعراء الغروب ؟

ولاحظ تورده وجنتيها بشغف وهو يبتسم :

— لكن .. لكنى لست بشاعرة !

— ولكنك تكتبين شعرا .

— ومن أدرانى أنه شعر ؟

— سوف أحكم بعد الاطلاع !

— كلا .

نطقت بها فى إشفاق وحياء فقال :

— لا سر بيننا وأنا فخور بك .

— ما هو إلا كلام ركيك ..

— صاحب شعرك حتى ركيكه
 أصبلت جفنيها في استسلام حتى تلاقى رموشها الطويلة
 المقوسة إلى أعلى ، وإذا به يسألها في اهتمام من الأعماق ؟
 — خبريني يا بثينة كيف اتجهت نحو الشعر ؟
 — لا أدري !
 — أنت متفوقة في العلوم ولكن كيف اتجهت نحو الشعر ؟
 وهي تتذكر مقطبة :
 — المختارات المدرسية ! .. أحببتها جدا يا بابا ..
 — ولكن ما أكثر من يحبونها ..
 — كانت تسحرني بدرجة أقوى فيما أعتقد ..
 — ألم تقرئي غير ذلك من الشعر ؟
 — بلى ، قرأته في دواوين ..
 — دواوين ؟
 فضحكت قائلة :
 — استعرتها من مكتبتك !
 — حقا ؟
 — وعرفت أنك شاعر أيضا .
 وخزه ألم فدغمة للتظاهر بالمزيد من المرح وقال :
 — لا .. لا .. لست شاعرا .. كانت لعبة من لعب الطفولة ..
 — مؤكدا أنك كنت شاعرا ، على أى حال وجدتني مدفوعة إلى
 الشعر دفعا ..
 أنت تتحدث عن المسرح ولكني شاعر ، وأنا ملقى في دوامة لا
 نجاة منها إلا بالشعر فهو غاية وجودي ، وإلا بالله أخبرني ماذا
 نصنع بالحب الذي يكتنفنا كالهواء ؟ ، والأسرار التي تلفحنا
 كالنار . والكون الذي يرهقنا بلا رحمة ؟ ، فلا تكن مكابرا يا
 صديقي .

— زيدينى شرحا ؟
قالت وهى تسترد شجاعتها المألوفة :
— كأننى أبحث عن أنغام فى الهواء !
— قول جميل يا بثينة ، وهو كذلك ما دام لا يفسد علينا
الحياة ..

— ماذا تقصد يا بابا ؟
— أعنى دراستك ، ومستقبلك ، ولكن أن لى أن أطلع على
شعرك !

أنته بكراصة مغلقة بورق مفضض . وباحترام وحب واشفاق
ولهفة راح يقرأ . وتخلل قراءته عام ١٩٣٥ مداعبا ومعترضه . عهد
الحرمان والأمل والأسرار . والاضطراب المطوق للعباد . وأحلام
المدينة الفاضلة . ثم صوت عثمان وهو يرتعش هاتفا « عثرت على
الحل السحرى لجميع المشاكل » .

ولكن البنت عاشقة . ورپى إنها لعاشقة . البرومة التى لم
تتفتح بعد . من هو ذو الجمال ، الذى السحاب أنفاسه . والشمس
مرآته . الذى تتمايل الأغصان شوقا إليه . لماذا نضطرب إذا كرر
الأبناء سيرتنا ؟ وما رأى أبى إذا سمعنى أحدث حفيدته فى
الحب ؟ !

— هذا شعر حقا !
تألق الفرح أخضر فى عينيها وصاحت :
— حقا ؟ !

— شعر جميل .
— أنت تشجعنى يا بابا ليس إلا ..
— بل أقول الحق .
ونظر فى عينيها ثم سأل باسمها :
— ولكن من هو ؟

فانطلقت شعلة الحماس فى عينيها وتساءلت فى شيء من
الخيبة :

— من .. ؟

— من المقصود بالترانيم ؟

ثم بنبرة ثقة :

— لم يعرف السر مكانا بيتنا ..

فقالتم بالفار لم يخل من فتور :

— ليس أحدا من الناس !

— ترى ألم أعد الصديق الأب ؟

— بلى ولكنه ليس أحدا من الناس .

— يهمنى أن أعرفه بعد إذنك ؟

— ولكنى أقول أنه ليس أحدا من الناس .

— أهر من الملائكة ؟

— ولا من الملائكة .

— ماذا هو إذن .. حلم .. رمز ؟

فى حيرة واضحة :

— لعله .. هو غاية كل شيء ..

مسح الرطوبة عن جبينه وساعديه وصمم بإرادة هائلة على
أن ينتزع من نفسه أية نية عبث أو سخرية أو استهانة وقال
بجدية :

— إذن غائت تعشقين سر هذا الوجود ؟

أجابت فى توتر حل محل شجاعتها التلقائية :

— هذا جائز جدا يا بابا ..

وما أحققنا عندما نظن أنفسنا أغرب من الآخرين .

— كيف حصل ذلك ؟

— لا أدري .. ، من الصعب أن أوضح ، ولكنى وجدت فى



إذن فانت تعشقين سر هذا الوجود ؟

ديوانك بدء الطريق ..
 وضحك ضحكة عضلية خالصة وقال :
 — مؤامرة عائلية ! .. أمك كانت تعرف من زمن وأطلعته على
 ذلك الشيء الذى تسميته ديوانا ..
 ولكنه شعر رائح .. وكم أنه ملهم !
 وضحك ضحكة عالية لغتت إليه عازف البيانولا الذى كان
 يرسل على الكورنيش أنغامه المتشنجة .
 — أخيرا وجدت معجبة ! ولكنه لم يكن شعرا ، كان أوهاما
 محرقة ، ومن حسن الحظ أنى تركته فى الوقت المناسب ..
 — أما أنا فوجدت فيه ما أقيم به ..
 — أذن فأنت خالقة حتى فى قراءتك !
 — أنت تقول هذا !
 — وهذا هو حبيبك ؟
 — كما إنه حبيبك !
 كان . لا حبيب الآن . القلب لم يعد يفرز إلا الضياع . وبين
 النجوم يترامى الفراغ والظلام . وملايين السنين الضوئية .
 — ما رأيك يا أبى ؟
 — لمثلك ينبغى أن أقول (أفعلى ما تشائين) .
 فتساءلت فى مرجح :
 ومتى تعود إلى الشعر ؟
 — أدعى الله أن أعود إلى مكتبي أولا !
 — أنى أعجب كيف هان عليك أن تهجوة ؟
 فقال وهو يدارى ابتسامة حياء :
 — كان لهوا ليس إلا ..
 — والديوان يا بابا ؟
 — توهمت يوما أنني سأستمر ..

— ولكنى أسألك عما أوقفك .
 تداخلت شفتاه فى سخريه ولكنى سرعان ما ارتفع إلى حال
 من الجدية الصادقة ودفعته رغبة صريحة إلى الاعتراف فقال :
 — لم يسمع لغنائى أحد .
 أضرب بك الصمت .. وقال مصطفى محرضا :
 — المشايمة والصبر !
 وقال عثمان :
 — أقذف بشعرك فى المعركة تظفر بالآلاف المستمعين !
 وأرهقك الصمت ، وألح عليك الحرمان ، وفتح الحب ذراعيه .
 وأثبت أنه لا قدرة له على الامتلاك ، ويوما قال مصطفى بارتياح :
 — أخيرا قبلت فرقة الطليعة مسرحيتى ..
 وأشتد أرهاق الصمت . وقرر شمشون أن يهدم المعبد .
 وسرعان ما استغرقه النوم .
 وسألت بثينة :
 — هل من الضرورى يا بابا أن يستمع لغنائنا أحد ؟
 فداعب خصلة من شعرها الأسود وقال :
 — ما معنى أن ندعو سر الوجود من الصمت إلى الصمت ؟
 ثم برقة وعطف :
 — ألا تودين أن يسمع لغنائك الناس ؟
 — طبعاً ولكنى ساستمر على أى حال ..
 — جميل ، أنت أفضل من أبيك ، هذا كل ما هنالك .
 — ولكنك تستطيع أن تعود إلى الشعر إذا أردت ..
 — الموهبة ماقت إلى الأبد .
 — لا أصدق ، إنك فى نظرى دائماً شاعر .
 ما للشعر وهذا الطول والعرض ، والتفكير الدائب فى
 القضايا ، وبناء العمارات ، والطعام الدسم لحد المرض ؟

وحتى مصطفى انحط يوما على المقعد الطويل مقوس الظهر
 كأنما أوغل في الكبر وقال :
 — ما أضيع الجهد !
 وقلت له بانزعاج :
 — ولكن الطليعة ترحب بمسرحياتك ، وهي فن جيد حقا .
 فلوح بيده بازدياء وقال :
 — على أن أعيد النظر في حياتي كما فعلت أنت ..
 — طالما نصحت بالمشاورة والصبر .
 فبحسب ضحكة خشنة وقال :
 — لا فائدة من تجاهل الجماهير !
 — أتريد أن تبدأ من جديد محاميا ؟
 — مات القانون قبل الفن ، الحق أن مفهوم الفن قد تغير
 ونحن لا ندري ، عهد الفن قد مضى وانقضى ، وفن عصرنا هو
 التسلية والتفريغ ، هذا هو الفن الممكن في زمن العلم ، ويجب أن
 تتخلى عن جميع الميادين عدا السيرك .
 — الحقيقة أننا نتحطم واحدا بعد آخر .
 — بل قل أننا يلغنا سن الرشده ، انظر إلى نجاحك في الحياة
 على سبيل المثال ، وفي رأيي أن الترفيه غاية جلييلة لمتعبى القرن
 العشرين ، وما نظن أنه الفن الحقيقي ليس إلا الضوء القادم من
 نجم مات منذ ملايين السنين ، فعلينا أن نبلغ سن الرشده وأن
 نولى المهرجين ما يستحقون من احترام !
 — يخيّل إلى أن التفلسف قد قضى على الفن !
 — بل قضى العلم على الفلسفة والفن ، فإلى مسرات التسلية
 بلا تحفظ ، ببراءة الأطفال وذكاء الرجال ، إلى القصص الخفيفة
 والضحكات المجلجلة والصور الغريبة ، ولنتنازل نهائيا عن غرور
 الكبرياء وعرش العلماء ولنبتلع بالاسم المحبوب والمال الوفء ..

سرنى ذلك رغم الحزن والأسف . مارست بتألم حقيقى
العواطف المتضاربة . وفكرت بذهول فيمن أزرده السجن .
الأصابع المحبوبة يهيك بلسم العزاء لفشلك . وتوقا غير متوقع .
من غد سوف يطمح إلى القوة التى امتلكها ولكن بوسيلة أتفه .
كما انقلب المتطلع إلى سر الوجود إلى محام ثرى غارق فى المواد
الدهنية .

— إن يكن العلم كما تتصور فما نحن إلا طفيليون على هامش
الحياة .

— نحن رجال شاححون ذوو سر دفين من الحزن المكبوت وليس
من الحكمة أن ننكأ الجروح .

— لكننا ننتهى فى الواقع إلى عصر قديم بال .

— بالله لا تنكأ الجروح .

— العلماء أقوياء بالحقيقة ونحن نوتنا مستمدة من المال
الذى يفقد شرعيته يوما بعد يوم .

— لذلك أقول لك إن الموت يمثل أملا حقيقيا فى حياة الإنسان.
ونظر إلى عينيها الخضراوين برققة وقال :

— بثينة ، هل أطمع بأن تعدينى بالأأ تفرطى فى دراستك
العلمية ؟

— أظن ذلك ولو أن الشعر سيظل أجمل ما فى حياتى ..

— ليكن ، لن أجادل فى ذلك ، ويمكن أن تكونى شاعرة وفى
ذات الوقت مهندسة مثلا .

— يبدو أنك مشغول بمستقبلى ..

— طبعاً ، لا أحب أن تنتهى يوما فتجدى نفسك فى العصر
الحجرى على حين يعيش من حولك فى عصر العلم ..

— لكن الشعر ..

فقططعها :

.. لن أجادلك يا عزيزي ، صديقي مصطفى يجد في العلم ديننا
وشعرا وفلسفة ، لكنني لن أجادلك ، أنا سعيد بك وفخور ..
هاهي الشمس تنهارى للمفيع . قرص أحمر كبير امتص
المجهول قوته وحيوته الباطشة فرنت إليه الأعين كما ترنو إلى
الماء . وتدفتت حوله كثبان السحب وضاعة الخوافي موردة الأديم
في مهرجان الألوان .
أتريد أن تعرف سرى حقا يا مصطفى ، اسمع عندما أمضيت
الفشل جريت نحو القوة التي أمنا من قبل بأننا شر يجب أن
يزول ، ولكتك تعرف سرى يا مصطفى ..

فى ضوء الشمس الغاربة تبدت أنيقة وقورا . رغم أكتناز
جسمها الطويل ، المفصع عن شبيع مشير ورفاهية محنقة . ما كان
أرق جمالها . وما زالت على قدر من الجمال بالرغم من ضخامتها
غير العادية وانتفاخ وجنتيها . ونظورتها الخضراء الجادة لم تفقد
كل سحرها ولكنها غريبة ، غريبة مستحدثة لم ترها عينك من
قبل . امرأة رجل آخر . رجل الأمس الذى لم يعرف التعب أو
الفتور . الذى نسى نفسه . ولكن ما علاقتها بهذا الرجل ؟ ،
المريض بلا مرض ، المتجنب للدمم والشراب ، الذى يتنسم فى
الهواء المشبع بالرطوبة نذر مخاوف لا حدود لها . والأختان
سابقتان ، جميلة تمشى على سور الكورنيش الحجرى قابضة
على يد يثينة التى سايرتها على الأرض ، فى الطريق ما بين
جليم وسيدى بمشر الذى يخف به الزحام درجة ما . وأعين كثيرة
تطلعت إلى يثينة ، وشفاء تمتعت بكلمات لم يميزها ولكنه يعرفها
على أى حال فابتسم من الداخل فحسب . وما هو إلا عامان أو
ثلاثة ثم تصير جدا ، وتمضى الحياة ، ولكن إلى أين ؟ . والتفت
إلى الشمس الغاربة فى سماء صافية باهتة لم يعلق بها من
الشفق إلا قمشة سطحية استدارت مند الأفق . قال :

... كان الأقدمون يتساءلون أين تذهب الشمس ، ولم نعد

نتساءل ..

فتطلعت زينب إلى الشمس شوانى ثم قالت :

— بديع أن نتخلص من سؤال !

الإجابة العاقلة تخنقك وكأنها تستفزك . التصرفات العاقلة تغضبك بلا سبب .. ما أجمل أن يشور البحر حتى يطارده المتسكمين على الشاطئ . وأن يرتكب السائرون على الكورنيش حماقات لا يمكن تخيلها . وأن يطير الكازينو الكبير فوق السحب . وأن تتحطم الصور المألوفة إلى الأبد . فيخفق القلب في الدماغ ، وتتراقص الزواحف والعصافير .

ومضت البنيتان إلى سينما سان استفانو ، ثم واصل كلاهما المشى متقاربين . وإذا بها تتأبط ذراعه وتهمس متسائلة :

— عمر .. ماذا عندك ؟

ألقي نظرة باسمه على ما حوله وقال :

— ما أكثر الغرام !

— هو كذلك دائماً ، ولكن ماذا عندك ؟

فقال معنفاً في التجاهل :

— بثينة لا تعرف أشياء كثيرة ، فكرت في ذلك وأنا ..

فقاطعته نافذة الصبر :

— إني أعرف ما على ، والبثت معدنها نفيس ، ولكنك

تهرب .. ما أشد استجابة نفسك لـ (تهرب) كأنها مفتاح سحري يلقى إليك في جيب ..

— أهرب ؟

— أنت فاهم ما أعنيه فاعترف ..

— بأي جريعة ؟

— بأنك لم تعد أنت ..

ما أحوج الرطوبة اللزجة إلى عاصفة هوجاء .

— حقا ؟

— جسمك وحده الذى يعيش بيننا ، وأحيانا أحزن لحد الموت .

— ولكننى أتناهى بعزيمة صادقة كما لابد تشهدين .

— الحق أنى أفساد من السبب وراء ذلك كله ، أطوارك جعلتنى أفساد من جديد .

— لكننا شخصنا الحال بما فيه الكفاية .

— أجل ، ولكن ألا يضايك شيء بالذات ؟

— أبدا ..

— يجب أن أصدقك .

— لكنك لا تصدقين تماما فيما يبدو ؟

— ظننت أن أمرا ضايك ، فى المكتب ، فى المحكمة ، عند أحد

من الناس ، وأنت حساس وبارع فى الحزن المكتوم !

— أنا لم أقصد الطيب إلا لأننى لم أعثر على سبب

مفسوس .

— لم تحدثنى كيف بدأت الحال .

— طالما حدثتك عن ذلك .

— عن النتائج فقط ولكن كيف بدأ الحال على وجه التدقيق ؟

— وهى رغبة مستهترة فى الاعتراف تدفعك .

— من الصعب أن أحدد تاريخا أو أقرر كيف بدأ التغيير .

لكننى أذكر أننى كنت مجتمعا بأحد المتنازعين على أرض سليمان

باشا ، وقال الرجل : (أنا معتن يا اكسلانس ، أنت محيط بتفاصيل

الموضوع بدرجة مذهلة حقيقة بإسمك الكبير ، وأن ألقى فى

كسب القضية لعظيم) . فقلت له : (وأنا كذلك) فضحك بسرور

بين وإذا بى أشعر بغيظ لا تفسير له ، وقلت له (تصور أن

تكسب القضية اليوم وتمتلك الأرض ثم تستولى عليها الحكومة

غدا) فهز رأسه فى استهانة وقال : (المهم أن نكسب القضية ،

السنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سيأخذها (فسلمت
بوجاهة منطقته ولكن ذهل رأسى بدوار مفاجيء وأختفى كل
شئ ..

ومته بنظرة داهشة وسألته :

— أكان هذا هو السبب ؟

— أبدا .. لا أعرف سببا على التحديد ، ولكنى كنت أعانى
تغيرا خفيا مستمرا ، من هنا جاء تأثرى الذى لا معنى له بكلام
الرجل الذى ترده الملايين كل ساعة دون أن يحدث أى أثر لآى
إنسان .

— طبعا ، أنت لا تفكر فى الموت إلا كما يفكر العقلاء .

توى كيف يفكر العقلاء فى الموت !

— هذا مسلم به من حسن الحظ .

وهى تحدجه مستطلعة :

— وهل كرهت العمل بعد ذلك ؟

— لا .. لا أستطيع أن أقطع برأى فى ذلك ، ربما قبله وربما

بعده .

— الحق أنى حزينة بدرجة لا أحب أن أحدثك عنها ..

— ولكن هل يهيك العمل لهذا الحد ؟

— أنت من يهمنى ، أنت وحدك ..

وتؤجل قضية فأخرى فتأثله ويمضى النهار وأنت مستمر فى
مقعدك ممدود الساقين تحت المكتب تدخن بلا انقطاع وتغظر إلى
السقف ببلاهة .

— تعببت من المشى .

— لكنك تمشين أضعاف ذلك .

فقالته وهى تخفض البصر :

— أن لى أن أمتوب لك بدورى ، الراجع أنتى حبلى ..

فاهتز باطنه بموجة قاسية أكدت تلهفه على مفتاح الهرب
السحري وتمتم
... لكن ..

فقال بهدوء :

— يا عزيزى ، أمر الله فوق كل تدبير ..

ثم وهى تشد على ذراعها :

— وأنت لم تنعم بعد بولى العهد !

واستدارا راجعين ونظرة دلال تمرح فى عينيها . وموت
النظرة طويلا حتى دق ناقوس الإنذار . وقال لنفسه إنه بشيء
من الشراب سيطرد الفتور ويمثل دور الحب كما يمثل الزوجية
والصحة .

واستيقظ مبكرا بعد نوم ساعات معدودات . وطرق أذنيه
صخب الأمواج العاصف فى سكون الصباح المعتم . وزينب
مستغرقة فى النوم ، مكتظة بالنوم والشبع تنفجر شفتاها عن
شخير خفيف متواصل ، مشعثة الشعر . وأنت متضايق كأنما
كتب عليك أن تناطح نفسك . وهذا يعنى أننى لم أعد أحبك . بعد
الحب القديم والعشرة الطويلة والذكريات المليئة بالوفاء لم أعد
أحبك . لم تبق ذرة حب واحدة . ليكن عرضا يزول بزوال المرض
ولكنى الآن لا أحبك . وهو أشقى ما ألقى من مر التجارب . وها
أنت تسمع شخيرها فلا تعطف ولا يبتسم القلب . وتنظر إليها
وتسأل ماذا جاء بها أو ماذا جاء بك ومن ذا قضى بهذا السخرة
اللعينة ؟ !

— مصطفى .. ها هى الفتاه !

— الخارجة من الكنيسة ؟

— هى هى .. انظر إلى فستانها الأسود حدادا على عمها .. أى

ملاحظة !

— ولكن الدين !

— لم أعد أكرث لهذا العوائق ..

وقلت لها يسعدنى أنك تنازلت بقبول معرفتى . فى حديقة
العائلات قدم عمر الحمزاوى المحامى نفسه فتمتعت بصوت لا يكاد
يسمع (كاميليا فؤاد) . يا عزيزتى حبنا أقوى من كل شيء
وسوف نتغلب على أى عائق فقلت وهى تتنهد (لا أدري) .

ويوما ضحك مصطفى فى جو عاصف وقال :

— إنى أعرفك منذ عهد آدم ، بحاشة عن المتاعب ، زويدة فى
بيتك وزويدة أعنف فى بيتها وأنا حائر بينكما ..

ثم ما أجمل موقفه وهو يرفع كأسه صائحا :

— مبارك عليكم ، أصبح الماضى فى خبر كان ، ولكن
تضحيتك لا تقاس بتضحيتها ، وللعقائد طغيان حتى على الذين
نيذوها ، صحتك يا زينب ، صحتك يا عمر ..

وانتضى بك جانبا وراح يقول وهو سكران تماما :

— لا تنس الأيام الأليمة ، لا تنس الحب أبدا ، تذكر أنه لم
يعد لها أهل فى هذه الدنيا ، مقطوعة من شجرة ، ولا أحد لها
سواك .

تزوجت قلبا نابضا لا حدود لحيويته ، وشخصية فائقة حقا ،
تلميذة مثالية للمراهبات ، مهيبة بكل معنى الكلمة ، مدبرة حكيمة
كانما خلقت للتدبير والحكمة ، وقوة دافعة للعمل لا تعرف التوانى ،
وشغرة ثاقبة فى استثمار المال ، ارتفعت فى عهدا من غمار
العدم إلى التفوق الفريد والثروة الطائلة ، وجدت فى حرارة
حبها عزاء عن الفشل والشعر والجهد الضائع ، رمز الجنس والمال
والشبع والنجاح ، فعاندا جرى ؟ !

وتقلبت فى الفراش على وجهها فانتحسر طرف القميص عن
نصفها التحتانى العارى ، فانزلق من الفراش متجها نحو الشرفة



— مصطفى .. ها هي الفتاة !

ودخل ثم أغلق الباب وراءه . طوقه هواء عاصف ورأى
 الأمواج وهى تركض بجئون نحو الشاطئ فتلطم بزبدتها القاتر
 أرجل الكباين ، تحت قبة باهتة انتشرت قطعان السحب فى
 جنباتها وغام جو الصباح الباكر باللون الرمادى المشع منها . ولم
 تدب قدم بعد فوق الأرض . ولم تنفتح نفسك لشيء . ولم ينعشك
 الهواء . وحتى متى تنتظر الشفاء . أين مصطفى لأسأله عن معنى
 هذه المتناقضات . عنده من الأفكار مدخر كثير رغم أنه لم يعد
 يبيع اليوم إلا اللب والغشار . لماذا يجرى دور زيتب بعد العمل ؟ !
 وما هى موجة تملو علوا غير هادى ، ثم تتكسر عن أطنان من
 الزبد ، ثم تنداح فى تدهور مسلمة الروح . يا إلهى إنهما شيء
 واحد . زيتب والعمل . والداء الذى زهدنى فى العمل هو الذى
 يزهدنى فى زيتب . هى القوة الكامنة وراء العمل . هى رمزه .
 هى المال والنجاح والثراء وأخيرا المرض . ولأنى أتقزز من كل
 أولئك فأننا أتقزز من نفسى أو لأنى أتقزز من نفسى فأننا أتقزز
 من كل أولئك . ولكن من لزيتب غيرى ؟ . الليلة الماضية كان
 الحب تجربة مريرة . ضمير ونضب فلم يبق منه سوى ارتفاع فى
 الحرارة وسرعة فى النبض وزيادة فى ضغط الدم وتقلص فى
 المعدة ، تتلاحق فى وحدة رهيبة . وحدة الموجة التى يمتصها رمل
 الشاطئ ، فلا يتقهقر منها إلى البحر شيء . هى تترنم بأهازيج
 الفرام وأنا أبكم ، هى تطارد وأنا شارد اللب ، هى تحب وأنا كاره
 ، هى حيلى وأنا عقيم ، هى حساسة حذرة وأنا بليد ، وقالت أنت لا
 تتكلم كعادتك فقلت بل لا يسمع لى صوت ، وقلت تصور أن تكسب
 القضية اليوم فتملك الأرض ثم تستولى عليها الحكومة غدا ،
 قال: ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سياتخذها . ورغم
 الجفاء والجفاف فإن الموجة تملو لحد الجنون ثم تتكسر عن الزبد
 ثم تسلم الروح ، ويزدردك قبر الثوم بلا راحة ، ويظل عقلك يتابع

هواجسه ، حتى الطبيب تفكر فى زيارته مرة أخرى ، مسلما
بأنك تفسرت أكثر مما كنت تتصور ، قيا ترى ماذا أريد ، أجل ماذا
أريد ، الفقه لا يهم ، والحكم لصالح موكلى لا يهم ، وإضافة مئات
جديدة لحسابى لا يهم ، ونعمة البيت السعيد لا تهم ، وقراءة
عناوين الصحف لا يهم ، فمارأيك فى رحلة فى الفضاء ، فى
ركوب الضوء شكرا لسرعته الثابتة ، الشيء الوحيد الثابت فى
هذا الكون الذى لا يعرف الثبات ، المتغير بلا توقف ، المتحرك
فى جنون .

وها هو قد وصل أول مكتشفين للفضاء ، ببيع الجراثيم
وببيع الأنباء الكاذبة ..

فى آخر اغسطس رجعت الأسرة إلى القاهرة . وامتعض عمر لمراى ميدان الأزهار وهو فى سبيله إلى عمله وقال أنه لم يتغير عما تركه وأنه ما زال معبرا كالحا للذهابين إلى أعمالهم . واستقبل استقبالأ حارا وبخاصة من مساعده الأستاذ محمود فهمى ، وسرعان ما حملت إليه ملفات القضايا المؤجلة والتي تحت البحث . ولم يخل سبتمبر من أيام لزجة ولكن جرت به نسائم لطيفة وظللت بواكير صباحه طلائع سحب بيضاء . وعانقه مصطفى المنياوى طويلا وقبّادلا القبلات ، ووقفا طوال الاستقبال وجها لوجه ، عمر بقامته المديدة ومصطفى راقع وجها نحوه وصلمته مائلة إلى الوراء تلمع تحت ضوء المصباح الفضى. وقال وهو يجلس على المقعد الجلدى الكبير أمام المكتب :

— أراك فى رشاقة الغزال ، برافو ..

وتناول سيجارة من العلبة الخشبية للمطعمة بالصدف التى تعزف أنغامها عند فتحها ، ثم أشعلها وهو يقول :

— فكرت مرات أن أزورك فى الإسكندرية ولكن واجب الزوجية كان ينادينى إلى رأس البر فضلا عن أنني شغلت طيلة الوقت بإعداد مسلسل جديدة للراديو ..

ونظر إلى ملفات القضايا ، ثم إلى عيني صاحبه مستجديا كلمة مشجعة قابتسم عمر ابتسامة غامضة فالحق النظرة

بالاستجداء حتى قال عمر :

— عملت صباح اليوم ساعات متواصلة .

فتنهده مصطفى في ارتياح غير أن الآخر تمتم :

— ولكن ..

فتساءل مصطفى في قلق :

— ولكن !

— بالصراحة لم استرد للعمل أية رغبة ..

وساد صمت متشائم ، ونفث الدخان من فم متوتر ، ثم

تساءل :

— أكان ينبغي أن تأخذ مزيداً من الراحة ؟

— دعنا من المغالطة فالأمر أخطر من ذلك .

ثم وهو يشعل بدوره سيجارة على صدى أنغام جديدة :

— الأمر أخطر من ذلك ، وليس العمل وحده الذى أصبحت

أكره ولكن الداء يلتهم أشياء أخرى أعز علينا من العمل ، زوجتى

على سبيل المثال .

— زينب !

فقال فيما يشبه الحياء :

— لا أدري كيف أتكلم ولكن للأسف لم أعد أطيقها ، البيت

نفسه لم يعد بالمأوى المحبوب !

— أتقول ذلك عن مكان يضم بثينة وجميلة ؟

— من حسن الحظ أنهما ليستا فى حاجة إلى ..

تجهم وجه مصطفى ورمشت عيناه المستديرتان الذابلتان

وتجلت فى نظراته المستطلعة رغبة ملحة حزينة فى حل اللغز .

— لكن مثلك لن يعجزه معرفة السر .

قال وهو يبتسم ابتسامة مريرة :

— لعله الكون — بدورانه الدائم على وتيرة واحدة — هو

المسئول الأول من ذلك .

— أعترف بأنك تبالي بما يتعلق بزيئب على الأقل .

— هي الحقيقة السوداء .

فساله بإشفاق :

— تتوقع مواقف عملية لذلك الموقف ؟

— إني أعيش فى مقام السؤال ولكن بلا جواب .

— على الأقل فإنك لا بد مقتنع بأن ما يك هو حال من أحوال

النفس .

— سمه كيف شئت ، ولكن ما هو ، ماذا أريد ، ماذا على أن

أعمل ؟ !

— أنت أرشد من أن تبقى فى مقام السؤال ، سائل رغباتك

الدفينة ، راجع أحلامك ، ها هي أشياء تود الفرار منها ، ولكن

إلى أين ؟ .

— أجل ، إلى أين ؟

— عليك أن تجيب بلا تردد .

— خبرنى أنت عما يدفعك إلى العمل والزوجة ؟

بدا السؤال مضحكا على نحو ما فضحك ولكن قنامة الجو لم

تسمح للمرح بالبقاء أكثر من ثوان .

— إني أرتبط بزوجتى بحكم الواقع والعادة ، أما عملى فهو

مصدر رزقى ، وللى جمهور أسعد به كثيرا ، مئات الرسائل

التي أتلقاها أسبوعيا تسعدنى حقا ، والحق أن تجاوب الناس

معك قيمة ثمينة ولو يكن مصدره بيع اللب والفشار !

— وأنا ليس لى جمهور وواقع وعادة ؟ !

تردد مصطفى مليا ثم قال :

— الحقيقة أن عملى جاوز بك أبعد غايات النجاح . وأن زوجك

تعبدك ، فلم تعد أمامك غاية تتطلع إليها .



ولكن للأسف لم أجد أطيافها ، البيت نفسه لم يعد بالمنازل المحبوب

عمر وهو يبتسم ساخرا :
 — هل أسأل الله فشلا فى العمل وخيانة فى الزوجية ؟
 — لو استجاب لك لمنحك حب الحياة من جديد !
 وخلا كلاهما إلى نفسه فى صمت مشحون بالتوتر منذر
 بعاسة وشيكة الوقوع . وقال عمر :
 — يعزىنى أحيانا أننى أكره نفسى بنفس القوة .
 ثم وهو يطفىء عقب السيجارة فى النافضة بقوة حانقة :
 — والحق أن عملى وزينب ونفسى ، كل أولئك شىء واحد هو
 ما أود التخلص منه ..
 فسأله وهو يحدج بنظرة مريبة :
 — هل هناك حلم يرواك ؟
 تردد بعض الوقت ثم قال بنبرة اعترافية :
 — حدث أن كتبت بثينة شعرا ..
 — بثينة ؟
 — قرأته ودار بيننا حديث فانبعثت فى نفسى أشواق غامضة
 إلى الكتب القديمة التى هجرتها منذ عشرين سنة !
 — أوه .. كم خطر ذلك ببالى !
 — صبرك ! .. حقا لقد دبت الحركة فى الركود الأبدى ، ورحلت
 أبحت عن نغمة ضائعة ، وتساءلت ترى هل يمكن أن أبدأ من
 جديد ؟ .. ولكنها كانت مجرد حركة طارئة ثم ما لبثت أن تجمدت ..
 — لكنك قراجت بسرعة !
 — بل عاودت القراءة ، وسطرت كلمات ، ولكن ذلك كله لم
 يكن شيئا ، وذات ليلة وأنا فى السينما رأيت وجهها جميلا فدبت
 الحركة فى مرة أخرى ..
 — أهى الحركة ما تنشد ؟
 — حركة أو نشوة .. أحييت الكائن دفعة واحدة .. وأمنت

ساعتها بأن الحركة أو النشوة هي مطلبى ، لا العمل ولا الأسرة ولا الثراء .. هي هذه النشوة العجيبة الغامضة .. كأنها النضر الدائم وسط الهزائم المتلاحقة .. وهي التى سحقت الشك والضمول والمرارة ..

وجه مصطفى إليه نظرة ثابتة وهو قابض على ذقنه بيده وتساءل :

— ترى أتوغب فى أن تودع الحب الوداع الأخير ؟
فقال مقطعا :

— أتظنه عرضا من أعراض السن الحرجة ؟ ولكن ذلك يعالج ببساطة ويمر بسلام عندما يندفع زوج وقور على غير توقع إلى الملاهى الليلية أو يتزوج من امرأة جديدة ، وقد ترانى يوما راكضا وراء امرأة ولكن سيظل ما يدفعنى شيئا أخطر من أعراض السن الحرجة ..

ولم يتمالك مصطفى من أن يضحك ضحكة عالية ثم يسأل :
— ترى أهى نشوة عجيبة حقا أم أنها تيرير فلسفى لجريمة الزنا ؟ !

— لا تنهكم بى فأنت نفسك كنت يوما قريسة لازمة خطيرة ..

ابتسمت أسارير وجهه ولاحظت فى عينيه نظرة منداحة فى مناهات التذكر وقال :

— أجل كنت شارعا فى كتابة مسرحية جديدة وإذا بالفن يتفتت بين يدى نشارة وترايبا ولكنى سرعان ما استبدلت به فنا آخر دان له ملايين المواطنين بالسعادة ..

— أما أنا فأخطأت الطريق ، استبدلت بالفن الزائل عملا ينافسه فى البلى ، فالمحامة كالفن من أعمال العصور البائدة ، وأنا لا أحسن ما أحسنت من فن جديد ، وفاتنى مثلك أن أتعلم

العلم ، فكيف السبيل إلى نشوة الخلق المفقودة ؟ ! .. الحياة قصيرة وأنا لا أنسى الدور الذي أصابنى عندما قال لى الرجل (ألسنا نعيش حياتنا ونحن نعلم أن الله سيأخذها ؟)

... هل تزعجك فكرة الموت ؟

... كلا ولكنها تحتم على أن أذوق كنه الحياة ..

... كما وجدتها فى السيفيما ؟ !

لم يعلم بجولاتك فى ميادين الاسكندرية وطرقاتها . وتشوفك النظامىء إلى الوجوه الواعدة بالنشوة المستعصية ، وتسكعك تحت أشجار الشلالات المترنحة باستغاثات العواطف المشبوبة . العملاق المجنون الذى ينتقب من عقله الضائع تحت الأعشاب الندية .

والمح إلى تلك المغامرات بشيء من الإسهاب ولكن فى إطار من حديث وقور يناسب العجائب الغامضة .

لم أكن فى تلك الليالى العجيبة حيوانا تحركه شهوة ، ولكنى كنت معذبا .. ويأثسا ..

— ٧ —

كلما رأيته كثيرا ازدادت شهوة
وكلما ازدادت شهوتي زاد لهيبي

— يا لها من أغنية متفجرة ! .. من المغنية ؟

— مارجريت .. نجمة (باريس الجديدة) ..

وتسمعت نسمة خريفية فى الحديقة الهلالية التصميم التى
تنبت وسطها حلبة الرقص ، وترامت الأنغام من فوق مسرح
أحمر الجدران والسقف يشع النور المكتوم من باطن جوانبه
المتهبه .

— انجليزية التكوين !

— هذا ما يدعيه صاحب الملهى ولكن حذار فمفهوم انجليزية
فى الملهى الليلية يمكن أن تدخله أجناس شتى ..
ثمة خطوط رشيقة فى صفحة الوجه ونظرة فى العينين
الملونتين وخفة فى الحركة ، لعل من تضامنها جميعا تنبت
النشوة المستعصية المنشودة .

— يا بختك فأنت خبير بهذا الجنات المحرمة ..

— هى ضمن عملى بصفتى المشرف على القسم الفنى بالمجلة

— براقو ! .. قلت أن اسمها مارجريت ؟

فأجاب وهو يضحك :

— أو عشرون جنيتها فى الليلة بخلاف مصاريف الفتح :

وحملت إليه نسمة الخريف اللطيفة تحية من عالم مجهول لا يسكنه عقل واحد وتقوم أركانه الأربعة وراء الظلام المهدق بأشجار السرو.

—توقع من جانبى أى عجيبة .

— ولكن لا تشرب أكثر من كأس ..

—المهم أن أدعوها إلى المائدة ..

ومضى مصطفى يبحث عن النادل . وسطعت الجو نفحة زنبقة . وفى فترات الصمت بين الغناء تجلت وشوشة الأغصان . وتوثب لطرق باب الهوس . ، ورأى أنماط غريبة من البشر فقال لنفسه كالمعتذر : هذا ما فعل بنا المرض ! .

وجاءت مارجريت تخطر فى ثوب سهرة مختلط الألوان لدرجة الفموض وحيث باسمه عن أسنان نخميدة بارزة ، وعلى بعد متر وقف النادل شبه منح كظلها فأمن عمر قائلاً :

—شمبانيا ..

شربتها أول مرة ليلة زفافك . من أرخص الأنواع كانت هدية مشتركة من مصطفى وعثمان معا . ما عسى أن يفعل المسجونون لو تفشى بينهم مرضك الغريب ؟ !

ورحب مصطفى بالمرأة ترحيب رجل لا يجهلها ولا تجهله وقال لها :

—مس مارجريت ، ، أعجب كلانا بصوتك ، وصديقى معجب بمشخصك ، والظاهر أنه كلما رآك ازداد ..

وغمز بعينه ضاحكا ثم قال :

—صديقى محام كبير ، أرجو ألا تحتاجى إليه بصفتك المهنية!

فضحك ثغرها ضحكة خالية من الصوت وقالت :

—إنى أحتاج دائما لمن يدافع عني ، أليس ذلك تعريفا لا بأس

به للمرأة ؟



(كلما رأيتك ازداد شهوة)

فقال عمر مستعينا بلباقة خاصة لم تستعمل من سنين
طويلة !

— باستثناء من لهن جمالك أو صوتك ..
وقال مصطفى وعيناه الذابتان ترمشان في خبث :
— دعيني أعرفك أنه بدأ شاعرا وإن لم يصل إلى مستوى
(ازدادت شهوتي) ..

تساءلت مارجريت في حذر وهي تتفحص عمر :
— شاعرا ؟ .. لكنه يبدو رصينا بكل معنى الكلمة ؟
فقال عمر :

— لذلك سرعان ما هجرت الشعر ..
— وهو يبحث عن الجمال علاجا لداء طريف ألم به في الأيام
الآخيرة ..

وانطلقت طقة السداة وهام في الكئوس الحباب .
— أيعنى هذا أنني نوع من الدواء ؟
فبادرها مصطفى ياسما :
— أجل ، لم لا ، من النوع الذي يؤخذ قبل النوم ..
— لا تتعجل ، الشفاء لا يجيء بالسرعة التي تتصورها ..
ودعت الموسيقى إلى الرقص فمضى بها إلى المرقص .
وعندما أحاط خاضعتها بذراعه وهام في وجدانه شذاها حلا
الليل ورقت الرطوبة وازدهرت مجامع الأشجار المتلاينة بالأحمر
والأبيض من المصابيح .

— ليكن تعارف سعيد .
— أنت ظريف بقدر ما أنت طويل ..
— لكنك لست قصيرة .
— ولكني أخشى عينييك الحادثتين ..
— ليستا كذلك إلا لأنهما يشتعلان سرورا ولكني كدت أنسى

الرقص ويقتينا أنى لا أحسنه ..

— ألا ترى أنك أطول من أن تحسن الرقص !

— عندما دعانى صديقى إلى باريس الجديدة قال لى (ستجد نمطا تحبه !) .

— حقا ؟

ما أجمل الكذب فى الخريف . وصفق لهما مصطفى وهما يعودان إلى مجلسهما . وأشرق وجه عمر بفرحة ساذجة واسترد فى لحظة معبقة يسحر الليل شباب الزمن الخالى ولمست الخاتم فى يسراه متممة :

— متزوج ! .. أنتم أيها المتزوجون لا تتركون للعزاب فرصة .. فقال مصطفى ضاحكا :

— أنكما تتقدمان بسرعة مذهلة ، أراهن على أنكما ستخرجان الليلة معا ..

— خسرت الرهان !

— لماذا يا عزيزتى مارجريت ؟ .. صاحبنا محام لا يعرف التأجيل ..

— اذن فعليه أن يعرفه !

— اللعنة على التقاليد الجامدة ..

ولكن عمر قال بركة :

— على أى حال سيارتى تحت أمرك لتوصلك إلى أى مكان . واستقلت معه السيارة ليوصلها وهو من البهجة فى نهاية : — إلى أين ؟

— بنسيون أثينا ..

— ولكن هل رأيت الهرم بعد منتصف الليل ؟

— لكنها ليلة مظلمة لا قمر فيها ..

فوجه السيارة نحو الهرم وهو يقول :

— المدينة حرمتنا من جمال الظلام ..

— لكن ..

فقال مطمئنا :

— أنا محام ، لا رياضي ولا قاطع طريق ..

والقلب لم يخرج من كهفه منذ مغاضى الحقائق وقهوة العائلات . ووجه زينب القديم لا يكاد يتذكره . وحتى صورة الزفاف لم يلق عليها نظرة حقيقية منذ عشرة أعوام . وأنت يامرجريت كل شيء ولا شيء . إننى أطرق بكل رجاء باب المدينة المسحورة . وها هو شعور الهارب يتماكنى .

— فى هذا الخلاء حول الهرم وقعت حوادث تاريخية ..

فأبعدت ذراعه من عنقها قائلة :

— لا تفكر من فضلك فى زيادة الحوادث ..

وضغط على راحتها مطمئنا رغم كل شيء فقالت :

— الأفضل ألا تقف ، ألا ترى أن الهواء شديد ؟

— لكننا فى حجرة محكمة !

ما أكتف الظلمة حولنا . تكاثفى حتى ينسانا العالم وليختلف كل شيء عن العين الضجرة . أن للقلب وحده أن يرى . أن يرى النشوة كنجم متوهج . وها هى قدب فى الأعماق كضياء الفجر . ملعل نفسك أمضت عن كل شيء ظمأ للحب . حيا فى الحب . توقنا لنشوة الخلق الأولى . اللانذة بسر أسرار الحياة . التى خرجت من صراع مليون مليون سنة بنبتة باهرة مذهلة .

— فلنبق حتى الصباح ..

— لا تحلم ، وصلنى من فضلك .

— ألم تسمعنى عن مغامرات الليل فى الهرم ؟

— حدثنى عنها غدا ..

ومال نحوها فتبادلا قبلة ، وهم بالاعراب عن رغبة أشد

ولكنها قالت برجاء :

— قلت غدا ..

ولثم خدها بخفة إعلانا عن تراجعه . وتحركت السيارة فوق
الرمال .

— لا تزعل من فضلك ..

— على أن أذعن للقوانين الأبدية .

— الأبدية ؟

— أضمن قوانين الأنوثة .

— الحق أنى متعبة .

— وأنا كذلك ، ولكنى سأعد مكانا مناسبيا .

— انتظر حتى نلتقى ..

— من الخير أن أبتى العش .

— انتظر قليلا .

— شيء يحدثنى بأننا لن نفترق ..

فقالت وهى تنظر إلى الطريق :

— نعم ..

وعندما رجع إلى كورنيش النيل بجاردن سييتى كان الفجر
وشيك الطلوع . وتذكر وهو فى المصعد زجر الأب فى الأيام
الخالية. ولما أضاء نور الحجرة رأى زينب جالسة فوق كرسي
التسريحة تتطلع إليه بعين كسيرة من الضوء والحزن . وقال
بهدهوء :

— كان يجب أن تكونى نائمة ..

فقالت باسطة راحتها فى يأس :

— هذه ثالث ليلة ..

ببرود وهو ينزع ملابسه :

— شيء لا بد منه ..

تساءلت فى شىء من الحدة :
— أهو البيت ما يضايقك ؟
— كلا ولكن الضيق واقع !
— وكيف تمضى الليل كله ؟
— ليس مكان محدد ، سينما ، قهوة ، أتجول بالسيارة ؟
— وأنا هنا فريسة للأفكار ..
— بل يجب أن تنامى هله جفنيك ..
— وسوف أمرض فى النهاية .
— اعملى بنصيححتى ..
وهى تنفخ :
— أنت تعاملنى ببرود قاتل ..
لا مرأه فى ذلك . رجلك القديم انسلخ من جلده . ها هو يركض
لاهثا وراء نداء غامض . مخلفا وراءه حفنه من تراب . مسرات
الأمس وحتى المدينة الفاضلة .. حفنة من تراب . وحتى فتاة
النضارة الواعدة عندما دقت أجراس الكنيسة . ونظرت فى
عينيهما الخضراوين يافقتان وقلت :
— الحب يهزأ بالخاوف ..
فتمتمت وهى تتعلق بك :
— ولكن أهلى ..
— أنا أهلك ، أنا كل شىء ، وستقوم القيامة قبل أن يتخلى
عنك حبنى !
واليوم تتعلق حياتك بأغنية داعرة .
— نامى يا زينب رحمة بنفسك وبى .

ولكن امرأة أخرى التى وقفت فوق المسرح الأحمر وغنت :

كلما وأيتك كثيرا ازددت شهوة
وكلما ازددت شهوتي زاد لهيبي
وما ل نحو مصطفى متسائلا :
— أين مارجریت ؟
فتغاب مصطفى دقائق ثم عاد وهو يقول :
— مفاجأة غير سارة ..
— وهي ؟
— سافرت !
— أين ؟
— خارج القطر !
— وهل يقع ذلك فجأة ؟
لوح بيده في استهانة وقال :
— لنبحث من غيرها ..

— ٨ —

تلك الدفعة الغادرة إلى الوراء فجرت رد فعل مضاد بقوة مضاعفة . وها أنتى فى سباق حاد مع الجنون . وغايتك الأخيرة أن تنطلق غصون الشجر . وقد سأله مصطفى :

— أأنتى واثق من أن ذلك هو الطريق إلى الشفاء ؟

— ذلك راجح ، وليس لدى الآن سواء ..

وأوقفت السيارة أمام ملهى (كاهرى) وقال وهما يمضيان نحوه :

— جرّبت كما تعلم أشياء وأشياء بلا جدوى ، وواتقنى نخبضة هامة أمام مارجريت ، ومارجريت وإن تكن كذبة عابرة ولكن النخبضة كانت حقيقية ..

وجلسا تحت تكعيبية جانبية خافتة الضوء يلوح الجالسون تحتها كأطياف . وقال مصطفى :

— أما مدير هذا الملهى فهو صديقك ..

وأشار إلى طرف المسرح البعيد حيث يقف رجل من النمط الكروى ، بدين مع ميل إلى القصر برميلى التكوين ، ذو وجه أبيض ملىء ينتهى أسفله بلفد غليظ منتفخ كأنه قربة ، وفى عينيه نظرة نائمة تحت جفنين ثقلين ، وفى جانب فيه انحراف شبه دشم يشى بالمرح . رأى الرجل مصطفى فانتقل إلى مجلسه بسرعة لا تناسب ثقله وعرفه عمر ، الزبون القديم الذى كسب

له قضيتين وصافحهما الرجل بحرارة وجلس وهو يقول :

— عمر بك .. خطوة عزيزة ..

وأمر بالويسكى واستطرد مخاطباً عمر :

— لم أحلم بأن تشرفنى أبداً وإن يكن العاملون هم أجدر الناس بالمرح ..

وقال مصطفى بلهجة حاسمة :

— دعنا من الرسميات يا مسيو يازبك .

نظر إليه بحذر فقال مصطفى باسم :

— هو ما تظن ، أن لك أن تترد الجميل لحاميك ..

— عمر بك ؟

— خطر لى أن أسألك عن المرأة التى تراها لاثقة به ..

ابتسم الرجل ابتسامة غامضة وقال :

— تناسبه فى ظنى فتاة مثقفة ، بنت ناس ، جميلة ..

— أقصد للحب لا للزواج !

— هو حر يا سيدى ..

— وهل لديك شىء من المثقفات الفاتحات .. ؟

فلوح بيد صغيرة ناعمة وهو يقول بفخار :

— كابرى .. كابرى !

وأسهب وهو يرمق عمر بنظرة لم يختلف منها الشك نهائياً :

— كانت طالبة بمعهد التمثيل ، لم توفق فى السينما ولكنها تعبد الرقص ، تألقت فى كابرى ..

— وردة !

— دون غيرها ..

وقال مصطفى كالمعتذر :

— لم أرشحها بسبب طولها الذى يصدننى عادة عن المرأة ..

وأشار يازبك إلى المسرح بثقة والموسيقى تعزف رقصة

شرقية . وهدرت عاصفة من التصفيق تستقبل راقصة باهرة
حقا تأخذ البصر بقامة مديدة قدت على مثال راقص
مثير . وعينين واسعتين جدا تسيلان جاذبية ناعسة ، وقد أضفى
جبينها العالي على وجهها جلالا رفعا إلى طبقة أخرى . وتمتم
مصطفى :

— هائلة !

— أنت مطعم ضد الخطيئة الساحرة ..

— مندى اكتفاء ذاتي وهو عبث شائع بين الأزواج الصالحين ..
وابتسم عمر وهو يتذكر قول مصطفى من أنه لا يمكن أن
يخون زوجته لأنه لم يوفق في الحب إلا معها . ثم غاب عن أصوات
المتحاورين وهو يتابع حركات الجسم القارع ، وخفته التي
تتحدى طوله وجلاله ، وسرعان ما عشق ابتسامتها كما عشق
شجرة السرو . وانتبه على يد يازبك الممدودة ليصافحه مستأذنا
في الانصراف . ولما ذهب تلقى من مصطفى نظرة جادة وسمعه
يقول محذرا :

— من النادر أن يظفر إنسان بنشوة الحب في هذه الملهى .

فتمتم عمر ساخرا :

— من جد وصل ..

— تعلم أنني كلما لقيت زينب هذه الأيام أجمعنى ضميرى ؟

فقال باستهانة :

— ثمة ألعنف من ترف الضمير ..

وأشار مصطفى إلى المتاعب التي تجيء من وراء العشق

فقال عمر :

— كلما رأيت أنثى خيل إلى أنني أرى الحياة على قدمين ..

وأقبلت وردة في حركة نشيطة ، بلا تلكؤ أو افتعال ، وهي

تحدجه بنظرة ثابتة من عينيها الواسعتين الرماديتين ، وتنشر

فى الهواء شذا خصفة من الياسمين مرشوقة فى أسورتها .
وصافحته وهى تقول بسرور :

— أخيرا وجدت رجلا لا أنظر إليه من فوق !

وجلست بين الرجلين ، ونفضت يدها فتساقط الياسمين فوق
غطاء المائدة الأحمر . وجاءت الشمبانيا وجرى الحياض . وتبدت
وردة رزينة ولكن نمت نظرتها الرمادية عن ميل مؤجل للمرح .
وبادلت مصطفى ابتسامة ألفة ليست بذت ساعتها . واستمعت
إلى الثناء المنتظر عن رقصها وجمالها ولكنها جعلت تنظر طيلة
الوقت إلى عمر باحترام . وتفحصها هو بعناية وهو يسأل الغيب
من الأمل المنشود وراء العينين الرماديتين . أنا لم أحضر لأتني
أحب ولكننى حضرت لأحب . والبشرة صافية والشذا طيب
والعين تحرك رموشها الطويلة لتنفث تعاويذها .

— إذن فانت المحامى الكبير ؟

— هذا لا يهم إلا إذا كان لديك مشاكل ..

— مشاكلى لا تحل بالقضايا ويا للأسف ..

— وما وجه الأسف ؟

— كان يمكن أن تحل على يدك ..

فقال مصطفى ضاحكا :

— إنه جدير بالثقة فى المحكمة وخارجها .

ورمق بحب استطلاع عنقها الطويل المطوق بعقد لؤلؤى
بسيط ، وأعلى صدرها المنبسط فى راحة ، ونضارة الجنس التى
تنضج بها شففتها المثلثتان الملونتان والنظرة السائلة من
عينها ، فنبض وجدائه بشوق غريب غير محدود ، وتلهف غامض
كالذى يساوره فى آخر الليل . وود أن يخاطب الأعماق وأن
تخاطبه الأعماق بلا وسائط ، وأن يجد إن خانقته النشوة المنشودة
بديلا فى لذعة الجنس السحرية . الذروة المتفجرة التى تمتص

رحيق الحياة وأحلامها فى رشفة واحدة زائلة ، وقلق من التلهف
والترقب ودغدغة المغامرة ، ومن سورة الشواب بلا حيلة .
ومن شذا الياسمين المضغوط تحت قاعدة الكأس ، ومن نظرة وردة
الموحية بالقبول ، ومن نجم يومض من خلال ثغرة فى التكعيبية ،
وقال لها عندما أذنت السهرة بانتهاء :

— نذهب ؟

وودعهما مصطفى وذهب ، وتأثرت وردة لمنظر الكاديلاك التى
وقفت كفيلا أنيقة .

— أين مسكنك ؟

— غير ممكن ، أليس لك بيت ؟

— فيه زوجة وابنتان ..

— اذن وصلنى لمسكنى كما يفعل الخياليون ..

انطلق إلى صحراء الهرم بسرعة جنونية . واستكن فى الخلاء
كليلة مارجريت وتربيع القمر يتهاوى إلى المغيب . وضمها إليه
بذراعه وتناول قبلة رشيقة كافتتاحة ، ثم تبادلا قبلة طويلة
تحدوها حرقه صراع فى مستوى القمر . وهمست فى تنهدة :
— هذا حسن ..

فضمها إليه بشغف تعادى فى خلوة الصحراء وأصابه تتخلل
شعرها المضىء بشعاع القمر . وهمس بصوت غريب لاهث :
— عندما يطلع الفجر ..

والحق خده بخدها وراحا ينظران إلى القمر الناعس فى
مستوى البصر ويتابعان شعاعه الواضى المنطرح فوق الرمال .
سوف يسحب ذيوله قبل أن يروى القلب الظامى . ولا من قوة
تستطيع أن تستديم اللحظة الالهية . اللحظة التى وهبت الكون
يوما سرا جديدا . وهما أنت تقف على أعتابها مستجديا . وتبسط
يدك فى ضراعة للظلمة والأفق . والغيابات التى يهبط إليها



وقال لها عندما أدت السهرة بانتهاه : فذهب

القمر . لعل قبسا يشتعل فى صدرك كما ينبثق الفجر . وتتوارى
مخاوف الإفلاس والعدم .

— أنت خيالى ؟

— بعيد عن ذلك لحد المرض .

وهى تضحك :

— ولست من الذين يضرّبون النساء ؟

— ولا الرجال ..

— هذا حسن .

وهو يضمها إليه أكثر :

— ولكنى شرعت يوما فى القتل !

— بسبب امرأة ؟

— كلا .

— لا تتحدث هكذا أمام القمر ..

— وأخيرا قررت أن أقتل نفسى ..

— بين يدي ؟

— بين يدك .

— وأمام القمر ؟

— ها هو القمر يختفى ..

عندما رجع إلى مسكنه وأضاء المصباح فتحت زينب عيّن

جامدتين . حياها بلا مبالاة فقالت بنبرة متوترة :

— الصبح طلع ..

فأجاب ببرود :

— فليطلع ..

وجلس فى الفراش منتفخة الجفنين ملقاة يائسة .

— لم أسمع منك هذه اللهجة منذ تزوجتك .

وارتدى بيجامته فى صمت فهتفت :

— لم أسمع أبدا ..

فتمتم وأجما :

— هكذا المرض .

— وكيف لى باحتمال الحياة ؟

— نهاري منغص فلا تنغص ليلى ..

— البنثان يسألان ..

— أه فلنواجه الأزمة بشيء من الحكمة ..

وهي تدفن وجهها فى الجدار :

— لو كان لى مكان ..

أطلقا الصباح واستلقى مغمض العينين . لن تلبث أولى حركات الصباح أن تسمع . ودموع ولا شك تسفح إلى جانبي . على حين ترقد الخيانة مدفونه كحشرة . وما هى إلا لحظات حتى يموت الوجود . مقطوعة من شجرة ، لم يعد لها أحد سواك . يا للعجب من أين لك هذا التصميم كله ؟ . ونشوة الليلة مجنونة كالبرق فكيف تملأ فراغ الحياة .

ويوم الجمعة سعى إلى بثينة فى الشرفة وهى تسقى أصص الورد . طالعها بايتسامة مرتبكة فوثبت نحوه مرحبة وأولته خدها ليلثمه . ورغم اشراقها لمح فى نظرتها المتهربة عتابا كالعبير الوانى .

— أوحشتنى جدا !

فعض باطن شفتيه وقال :

— أسف جدا ولكننى مصمم على الشفاء ، وبحاجة إلى

سماعة تفهمنى !

وعادت إلى أصص الورد فسألها :

— هل أنت بخير ؟

— نعم ..

ثم بعد تردد قالت :

— ماما ليست كذلك .

— لها حق ، ولكن سيتغير كل شيء بالسماحة الواجبة ..

فشارت إلى ياسمينه لا تكاد ترى وقالت بفرح :

— أول ياسمينه ، صغيرة جدا ولكن رائحتها قوية ، هل

أعطيها لك ؟

ما أغرب الذهاب كل يوم إلى المكتب . مكان غريب لا معنى له فمضى توجد الشجاعة الكافية لإغلاقه . وقال له الركيل :
— كل يوم أعتذر عن قضية ، ألم تسمع مما تعانيه المهنة ؟ ،
وكدت أصبح بلا نشاط ..

وغيره يتحمل عبء العمل في الواقع وهو بالكاد يوجه أو يراجع . وتحقق فيه من الجدران أعين قاتمة والهواء راكد عفن . وفي الخارج استغرقه احساس خلاق لتجهيز الشقة الجديدة بميدان سليمان باشا . وقال لوردة :

— إننى سعيد بتجهيز مشنا فإن الهرم لا يصلح للشقاء .
فتساءلت وهى ترقص بكتفيتها مع أنغام الجاز تحت تكعيبه كابيرى :

— وهل يدوم اهتمامك بى حتى الشتاء ؟
فرفع كأس الشعبان يا قانلا :
— فى صحة اهتمام دائم ..

ولمح على البعد يازبك فى وقفة مراقبة فخيمة فتبادلا ابتسامة ثم وضع راحته على يد وردة وهو يقول :
— إننى مدين له حقاً .

— هو خفيف وطيب بالقياس إلى أمثاله ، ولكنه جشع كالمنتظر ..

— ولكننى زبون شمبانيا !
فقطبت بلطف قرن بين حاجبيها وقالت :
— من الإسراف أن تجيء كل ليلة !
فتورده وجهه بهجة وتمتم :
— يا لها من تحية بيضاء ..
وهى تحاصره بعينيها :
— ألم يشهد بذلك الهرم ؟
— بلى يا عزيزتى ، وهو من ناحيتى ليس اهتماما كما قلت
ولكنه ..

فأسكتته بضغطة على يده وقالت :
— لا تسمعه ، دعه يسمى نفسه فهذا أجمل ..
— أنت ظريفة لحد الجنون !
— ولا ثقة لى فى الكلام إذ أننى فى الأصل معثلة ..
— وسيدة بكل معنى الكلمة ..
— شكرا ولكن الفن سيء السمعة عند الكثيرين ،
ولذلك انفصلت عن أهلى ، ومن حسن الحظ لا أب لى ولا أخ ..
فتفكر لحظة ثم قال :

— التمثيل بلا شك أفضل من الرقص فى كابرى ..
— لم أحبه كما يجب ، وقيل لى اننى بلا موهبة ، وعشقت
الرقص طوال الوقت ، فكانت كابرى وكان ما لا بد منه ..
فقال بحرارة :

— ولكن لك قلب من ذهب !
— لم أسمع ذلك من قبل ..
وكلف أكثر من رجل بالقيام بعمل فى تجهيز الشقة الجديدة .
الأثاث والديكورات والبار والتحف . وفى أقصر مدة ممكنة
تكونت على أجمل صورة حجرات للنوم والسفرة والمدخل ،

وحجرة شرقية تحيى فى الخيال أحلام ألف ليلة . وأنفق بلا حساب وكأنه يتخلص من ورم مالى اليم . وراح يتابع عينى مصطفى المنياوى وهما تجولان فى الأركان ذاهلتين ، وعندما سدهما نحوه قال :

— خير من اللوم أن تعدثنى عن معنى الحياة !

— الحياة !

— سأتق الجدار الأصم فى كل موضع حتى يرن صوت أجوف
يشى بالكنز المدفون !

فهز مصطفى منكبيه فى تسليم قائلا :

— من الجنون ما هو جميل ..

— لم أعرف للحياة طعما كما عرفتھا فى الأيام الأخيرة ولذلك
لا أبالى شيئا ..

قال مصطفى مبتسما :

— ياربك قلق متشائم مما يقطع بإخلاص الفتاة !

— هى إما بسيطة مخلصه وإما أنها أعظم ممثلة .

— لكنها ممثلة فاشلة !

وبهرها المنظر عند دخولها الشقة لأول مرة ، وهتفت
بإعجاب :

— ذوقك شمباتيولى حقا ، ولكنك مسرف !

وهو يقبلها قبلا متقطعة :

— أليس هو مشنا ؟

— ولكننى لا أريد أن أرهقك ، ويجب أن تفهمنى على

حقيقتى ..

— لولا فهمى حقيقتك ما فعلت شيئا ..

فضحكت بدلال وقالت :

— أنت المستول وحدك من فهمك ..

— والهرم ؟

— عندما تصرخ للسعة نار فلا يعنى هذا أن الصراخ من طبيعتنا ..

فاضطجع على ديوان وهو يقول :

— أخبرنى مصطفى أن ياربك قلق ؟

— رفضت أن أخرج مع أحد وليعض الأرض ..

— فليعض إلى ماشاء الله ..

— سوف أقصر عملى فى كابوى على الرقص ..

— خبرينى أنت مستشفة من ماء الورد ؟

فمضت وهى تقول :

— الجو حار اليوم ، سأخذ دشًا فى الحمام الجديد .

وبدل ثيابه . وشعر بأن الجلباب كان أليق بالحجرة الشرقية من البيجاما . وقلب عينيهِ فى المكان الأنيق بارتياح وسعادة . وقال إن السعادة وحدها كفيلة بشفائه ولو تساهل فى الرجيم والشراب . وتملكته روح دعابة فتساءل بصوت مرتفع جدا :

— ماذا يفعل ماء الدش ؟

فجاء صوتها من وراء الباب :

— غاية فى سوء الأدب ..

وفتح باب الحمام فمرقت منه متلعة ببشكير ، وهرعت إلى حجرة النوم ثم ردت الباب وراءها . وأغمض جفنيه على رضى . فليكرر هذا العش نشوات الهرم . وليكن ما بين يديه ما ينشده . ما داس قلوبا صديقة فى سبيله . وما علمه الاستهتار والقسوة . وألا يزول على غير انتظار كما زالت مارجريت . وزميلك المحامى الكبير قال لك فى مكتبك :

— تتراءى هذه الأيام أنيقا أكثر مما ينبغى لمحام قدير ناجح ؟

فقلت ضاحكا :



فليكرر هذا العش نشوات الهرم .. !!

— وأقل مما ينبغي لحام سعيد ..
ونظرت إليه بريبة جديدة برجل ماجن عشيق ولكنه سرعان
ما غير الحديث راجعا إلى حديث السياسة المفضل عنده فسأله :
— ماذا يفعل الناس فى هذه الأيام ؟
فأجبت دون مبالاة بالسياسة :
— أنهم يبحثون بجنون عن النشوة .
ولم يفهم ، إنه زير نساء ولست كذلك ، لست ماجنا ولا
عابثا ، ولكن منذا يفرق بين قاتل وعابد ، أو يصدق أنك تقيم
للعريضة معبدا ؟
وقطعت باب الحجرة نصف فتحة ثم أبرزت رأسها قائلة :
— ربما طال وقت الزينة وأنا فى حاجة ماسة إلى قبلة ؟
فهما إليها ، وأخذ خديها بين راحتيه حتى برزت شفاتها
مضمومتين فقبلهما قبلة طويلة وهو يشم بتلذذ رائحة الصايون
الزكية وشذا البشرة الأدمية . وهمس :
— هل أدخل ؟
قدنعت ضاحكة وهى تقول :
— لا تكن بدائيا ..
عاد إلى ضجعتة فوق الديوان . ورأى أمامه الدولاب الملون
الجامع للراديو والتلفزيون بين جناحيه فقام وأدارهما معا فى
فرحة طفولية فتلاقت فى أذنيه ضجة متداخلة مناقشة من جرائم
الأحداث مع ما يطلبه المستمعون ، ثم أسكتهما دون أن يتخلص
من عبثه الطفولى فمضى إلى الباب المغلق ونقر عليه فجاءه
الصوت :
— ها !
— احبك .
— من كل قلبى .

- ما أعز أمنية فى حياتك ؟
- الحب .
- فتعمدى فى عبثه البرىء متسائلا :
- هل فكرت يوما فى معنى الحياة ؟
- لا معنى لها إلا الحب .
- وهل فرغت من زينتك ؟
- لم يبق إلا القليل .
- فاستطال تماديه وهو يسأل :
- عزيزتى ألا يقلقك أن نعبث والعالم من حولنا يجد ؟
- وهى تضحك عاليا :
- ألا ترى أننا نجد والعالم من حولنا يعبث ؟
- من أين لك هذه اليلافة ؟
- عما قليل ستعرف سرها ...
- عندما يطوى الليل ستأثره ويدركنا الفجر بلا رحمة فلا
- مفر من الرجوع إلى الحجرة الكئيبة ، حيث لا نعمة ولا نشوة .
- ستطاردك ميثان حزینتان وجدار صخرى . ثم ترن أوتار الحكمة
- الكالحة باعثة كلمات تقريع جامدة خشنة كغبار الخماسين . لیکن
- ردك حارما قاصما كنفورك :
- لا تزعجینى .
- ولتصم أدنیک عن أى كلام .
- قلت لا تزعجینى هكذا أكون ، اليوم وغدا وكل يوم .
- انزلى على حکم الأمر الواقع ، وأبعدى البفت عن مجال
- نزامنا .
- لا جدوى من العناد وسوف أفعل ما يحلو لى .
- ولا تتراجع اذا تساءلت عن علة تغیرك .
- ظننى كما تشائین ، الملل كره إلى الاعتذار .

وفتتح الباب وخرجت ورده كأيها ما يكون .
— كيف توانى يا عزيز القلب ؟
رنا إليها طويلا قى انبهار ، ثم غمغم :
— دعيني أكوّن جملة لم يسبق ذكرها على لسان .

— ١٠ —

جلست قبالتها فى الشرفة ، جلست يوم العطلة ، فقال لنفسه
بعد ارتياح : حقا لم أرها منذ أسبوع كامل . وألقت الشمس على
حجرها وساقبها فيضاً من شعاعها الذى يبرق لآلء فوق سطح
النيل . ومن عجب أنه لم يعد يذكر كثيراً عن طفولتها ، وهل
كانت عفريته كجميلة ، ولكنها اليوم فتاة جميلة ، ذكية مجتهدة
وشاعرة ، ومثال للأناقة . وأما فكرة أنها تكرر صورة قديمة لأمها
فلتطردا من ذهنك .

— أنت جادة أكثر مما ينبغى لشاعرة !

وصاحت جميلة وهى تقف على عتبة الشرفة متحدية :

— شاعرة !

هددها بأصبع ثم عاد إلى بثينة التى توجس وراء مظهرها
الجاد زملا أو احتجاجاً . .

— وأنت أنحف مما يجوز كما أن أختك أسمن مما يجوز ، ماذا

تأكلين وماذا تأكل ؟

وصاحت جميلة :

— تأكل !

وجاءت أم محمد فحملتها رغم المقاومة وذهبت . وقالت

بثينة :

ماما مريضة !

— ماما بخير ، حدثيني عن نفسك .
— لا شيء هام ولكن ماما ليست بخير .
— لن تكلف عنك المطاردة في هذا البيت . وأنت ألا يشغلك
حقا إلا الشعر والرياضة والكيمياء ؟ وهل الله وحده هو
معشوقك ؟

— ألا يعجبك الحديث عن ماما ؟
فقال مقطبا :
— لم تعد تفهمني في مرضي ..
والتقت ميناها لحظات فحول بصره إلى الذيل متهزما .
— ولكن الدكتور يا بابا ..
فقاطعها بركة لتخفى ضيقا :
— الحق أننى الطبيب ولا أحد سواي .
— معذرة فقد عودتني على الصراحة معك .
— بلا شك .

وإذا بصوت رفيع حاد يصرخ : — شك
فقبض على ذراع الصغيرة حتى جاءت أم محمد فذهبت بها
— هل أصبحنا نسبب لك الكدر ؟
— لا سمح الله ، ولكن الإنسان يهاجر إذا ضاق بنفسه .
— إنها تبكى كثيرا وهذا مؤلم جدا .
— عليك أن تقشعيها بخطتها ..
فأالت وهي تعبت بأسورة ساعتها الذهبية :
— لكن معاملتك لها تغيرت ، وقلت لها بخشونة أنك ستفعل
ما يحلو لك !

— أقالت ذلك أيضا ؟
— أنا الوحيدة التى يمكن أن تشكو لها !
انقبض قلبه وتمتم :

— لكنه الغضب كما تعلمين .
— هى على أى حال مستعدة لأن تخفف عنك ضيقك بما فى وسعها ..
— ليس فى وسعها شيء !
وترددت لحظات ثم قالت :
— ألا تقدر أنها ربما تظن .. ؟
— أليس من الأفضل أن تطلعينى على آخر أشعارك ؟
— لا جديد .
— لكن محشوقك لا يكف عن الإلهام ..
— ربما تظن أن .. كما تعلم ؟
— أهى تصارحك حتى بالخاوف السخيفة ؟
— إنى حزينه حقا .
فقال وهو يشعل سيجارة :
— أوهام سخيفة .
فقالت بلهفة :
— إنى أصدقك ، أنت مثال أبدي للصدق ، أهى مجرد أوهام ؟
ها أنت محاصر فى ركن صلد .
— أمك أنزعجتك أكثر مما يجوز .
— قل إنها أوهام ..
فرمقها بعتاب ولكنها تجنبتة فاظرة إلى النيل وهى تسأل :
— ليس هناك امرأة ؟
وإذا بالصوت الرفيع يعلو :
— امرأة !
رفعها هذا المرة إلى حجره كأنما ليحتمى بها وراح يداعبها
بشئ من العنف الأبوى الذى يناسب شقاوتها ولكن بشئنة قتالت
بلهفة :

— أريد جواباً يا بابا .

— ماذا تظنين بوالدك ؟

— إننى أصدقك فتكلم .. وحياتى عندك تكلم ..

وقس ياس شديد قال :

— لا شيء .

تهلل وجهها فأربد قلبه . والتمعت عيناها بفرحه ظافرة
فتجهمت الدنيا . وتجلل الخريف فى الجو . وانتشر فى أعالي
الشجر اصفرار باهت . وعكست قوافل من سحب بيضاء
نصاعتها فوق الماء الرصاصى . وتضمن الفراغ الخابى أنغاماً
صامتة من الرقة والحزن ، وأسئلة مضمينة مسيرة الجواب .
وتضخمت كذيبته حتى أنذرته بالعدم .

ومن شدة ضيقه زار مصطفى بمكتبه بالمجلة . وتجدد النقاش
بلا نتيجة وقال له مصطفى :

— لقد جاريك وساعدتك على أمل أن يتبين لك عبث
المحاولة ولكنك غرقت ..
فهتف متنهدا :

— ألا تعلم أنى أعيش الفن الذى تلهفت يوماً على خلقه ؟
وأكمل مصطفى صفحة بين يديه ثم بعث بها إلى المطبعة ،
وقال :

— كثيراً ما خيل إلى أنك تعانى أزمة حادة لفن مكبوت !
فرفض ذلك بهزة من رأسه وقال :
— لا ، ليس الفن ، ربما هو ما نلجأ بسببه أحياناً إلى الفن ،
فتمهل مصطفى قليلاً ثم قال :

— لعله لو كنا من العلماء الذين ينفقون عشرين عاماً من
العمر فى البحث عن معادلة لما عرفت التعاسة إلى نفوسنا
سبباً...



ولكنها تجذبه ناظرة إلى النيل وهي تسأل :
ليس هناك امرأة ؟

فقال وهو يهز رأسه أسفا :

... لعل سر شقاىى أننى أبحت عن معادلة بلا تأهيل علمى ..

مصطفى وهو يضحك :

... ولأنه لا يرجد وحى فى عصرنا فلم يبق لامثالك إلا

التسول!

... التسول ! فى الليل والنهار .. فى القراءة المجذبة والشعر

العقيم .. فى الصلوات الوثنية فى باحات الملاهى الليلية . فى

تحريك القلب الأصم بأشواك المغامرات الجهنمية .

وتحدث مصطفى عن زينب فقال إنها تعاني مرارة الهجر

ومتاعب الحمل معا . أجل كم أنها متوعكة ولكن ما لقلبه قد تحجر،

وهو مستعد أن يجود لها بكل غال تحت شرط أن تحرره من

استغلال حب ميت .

... أجل .. هناك امرأة ما دمت تصرين عل أن تعرفى ..

والكراهية نبتت فى مستنقع أسن مكثظ بالحكم التقليدية

والتدبير المنزلى . ولا عزاء فيما بلغناه من شراء ونجاح فالعفن قد

دفن كل شىء . وحبست الروح فى برطمان قذر كأنها جنين

مجهض . واختنق القلب بالبلادة والرواسب الدسمة . وذبلت

أزهار الحياة فجفت وتهاوت على الأرض ثم انتهت إلى مستقرها

الأخير فى مستودعات الزبالة .

... أبكى ما شاء لك البكاء ولكن عليك أن تسلمى بالامر

الواقع .

فقد قتل الضجر كل شىء . وانهارت قوائم الوجود بفعل

بضعة أسئلة . وقلت له تصور أن تكسب القضية اليوم وتمتلك

الأرض ثم تستولى عليها الحكومة غدا فقال لى ألسنا نعيش

حياتنا ونحن نعلم أن الله سياخذها ؟

وكان فى مكتبه يراجع مذكرة فى فتور عندما دخل الساعى

ليستأذن للمسيو يازبك ، ودخل الرجل يتقدمه كرشه قسلا
وانحنى ثم جلس وهو يقول :

— مررت بميدان الأزهار فقلت أزور وأحيى ..

فقال عمر بسخرية باسمه :

— قل انك جئت من أقصى الأرض من أجل وردة !

— عزيزى الأفوكاتو العظيم ، أنت تعلم أن حديقتى مملوءة

بالورود ..

— حسن ، واذن لا تتكلم عن وردة كلمة واحدة ..

فابتسم ابتسامة مريضة وقال :

— من الحمق أن أتصور أنه يمكن أن أغلبك ، ولنتقدم فى

أقصر طريق بين نقطتين ..

— أفندم ؟

ثقلت جفونه وقال جادا :

— وردة لم تعد تقوم بواجباتها ..

— أعليها

واجب غير الرقص ؟

— سيدى ، أنت لم تشرف كاهرى تلك الليلة لترقص أو

لتشاهد الرقص ..

— واذن ؟

— قلت أشكو إلى الرجل الكبير ..

فقطب عمر ولم ينبس ، فقال الرجل :

— الشغل شغل يا عزيزى الكبير وأنا أحب ..

فقاطعه ببرود :

— افعل ماأراه فى صالحك يا مسيو يازبك ..

— اتى أتخاشى اغضابك ..

— لكنى أنتحل لك العذر مقدما ..

فأحتس الرجل رأسه معتنا وقال :
— وأعدك منذ الآن أن أعيدها إلى العمل إذا استغنيت عنها
مستقبلا ..

— لن يجيء هذا اليوم يا مسيو يازيك ..
— أصدق تمنيات السعادة يا شيرى !
وهم بالقيام ولكن استمهله بدافع هبثى مما يلم به دون
تمهيد ، وسأله :

— خبرنى يا مسيو يازيك ماذا تعنى لك الحياة ؟
رفع الرجل حاجبيه الخفيفين دهشة ، ولما قرأ الجد فى وجه
صاحبه قال :

— الحياة هى الحياة ..
— أنت سعيد ؟
— الحمد لله ، أحيانا يصاب الموسم بالركود ، أو يصيب
الملهى غرام مفاجيء كغرام وردة ، ولكن القافلة تسير ..
— لكنك تعيش حياتك ثم يأخذها الله ؟
— هذا مفهوم طبعاً ، ولكن بيتى جميل ، والمدام عال ، ولى
ابن وحيد يتعلم الكيمياء فى سويسرا وسيعيش هناك ..
وهو يبتسم :

— هل تؤمن بالله ؟
فأجاب الرجل بدهشة :
— طبعاً ، ياله من تحقيق طريف !
— اذن فقل لى ما هو الله ؟
ضحك الرجل عاليا . وأزالت الأسئلة الغريبة الكلفة فسأل
برجاء :

— هل يطول غرامك بوردة ؟
— طبعاً .

... إلا يمكن ..

فقطعه قائلا :

... أعدك إذا أخبرتنى ما هو الله أن أتركها لك فى الحال !

نهض الرجل ، وانحنى مرة أخرى ، وقال وهو ينصرف :
ستجدنى دائما فى خدمتك .

قبلها بشغف وامتنان وهو يقول :
— إنها لتضحية جسيمة أن تهجرى مملك :
فقال وعيناها الواسعتان تلمعان بأنداء دموع :
— من أهلك .
وعبقت الحجرة الشرقية بأنفاس الحب . وقال أنه ما كان
يظن أنه سيحبها بكل هذه القوة .
وأخرجت من جيب الروب علبة كحلية وأهدتها إليه فى
حياء .. هدية أزرار ذهبية للقميص .
تدت منه آهة فرح كآته سيستعمل الذهب لأول مرة .
— حبيبتي ..
— الأزرار كما ترى مكون من قلبين ..
— ذلك أن قلبك من ذهب كما قلت لك ..
وراحت قرجل شعره الأسود الغزير بأصابعها ، ثم سألته :
— لم أتيت اليوم بملابسك وبدلك ؟
فتجهم وجهه وقال بنبرة زايلا تطريب الغرام وحنانه :
— هجرت بيتى نهائيا ..
فنهفت بدهشة :
— لا ..
— هو الحل الوحيد .



— هجرت بيتى نهائيا .

فهمت بدعوة : لا !!

... قلت لك أننى لا أحب أن أسبب لك المتاعب .
... لتدع هذا الحديث جانباً ..

تكهرب جو الحجرة فى سكون الفجر . رمته بنظرة يائسة
وغاضبة من عينين دمعت أسفلهما لطلختان زرقاوان . ما أبشع
شراسة الغضب فى وجه ظل أليف طيلة عشرين عاماً .
— ألم أنصحك بأن تروضى نفسك على قبول الواقع ؟
— بل قل إنك تلتطخ كرامتك مع امرأة ساقطة !
— سيوقظ صوتك النائمين ..
— انظر إلى الأحمر فى منديلك ، ما أقذر هذا !
وأعماه الغضب فصاح :
— فليكن ، وماذا بعد ؟ !
— بنتك فى سن الزواج !
— إننى أدفع عن نفسى الموت ..
— ألا تخجل ؟ ! ، إننى خجلة من أجلك .
فصاح بغضب أشد :
— قبول الموت أدعى للخجل ..
وسقط رأسها مع دموعها وهى تقول بصوت مختنق :
— مشرون عاماً دون أن أعرف قذارتك ..
فقال بجنون :
— إذن فلتكن النهاية ..
— سأهيم على وجهى .
— بل تبتقين فهذا هو بيتك وسأذهب أنا .
وارتميت على مقعد بحجرة الجلوس مقمض العينين من الألم .
ورفعت رأسه على حس فإذا بثينة واقفة أمامك ، ناعسة العينين

من أثر النوم ، شاحبة الوجه . ترامقا في صمت في جو مشحون
بالعتاب والشعور بالإثم . وتذكرت الكذبة السوداء . وهصرتك
خزي لم تشعر به من قبل .

— أسف يا بثينة على إنعاجك .

وضع في ضمة شفتيها الكبيرياء الجريح .

— لا فائدة من الكلام .

نالت بالأرض التي تحملها فوق عاتقها ولم تنبس .

— ستظل أمك في البيت محاطة بكل رعاية ..

ودعا الله في سره ألا تبكى . وتعتم :

— إنه بلاء ، ولكنني أدفع عن نفسي ما هو أشد .

وتظرت في عينيها بنظرة حزينة جدا وقالت :

— ولكنك قلت لي (لا) ..

وهو يتنهد محترقا .

— كان الصدق غير لائق .

— لماذا ؟

فقال برجاء :

— فلنابق على ما بيننا من حب .

وذهبت ، ليس من الممكن أن تتلقى نظراتها مرة أخرى قبل

أن تصفح .

وقالت ورده :

— سوف تندم على قرارك .

— كلا ، لم أعد أطيق الحياة الكاذبة .

وفكرت في قلق ثم تساءلت :

— كم أخشى أن أفشل في إسعادك .

— لكنني سعيد بالفعل .

وأسلم نفسه للسعادة . ولم يسمح لأي فكرة معادية بأن تكدر

صفاءه . وتوقع من بادىء الأمر معارضة من ناحية مصطفى
ولكنه شكمه بلا تردد. وقال له :

— إننى سعيد فهل تكره ذلك ؟ ! حتى شيء من الشعر يتحرك
فى أعماقى ..

وحتى العمل انفتحت له نفسه بعض الشيء وإن ظل على
تحفظه فى قبول القضايا . وفى أوقات الراحة بين العمل كان
يجدد نشاطه بمحادثتها عن طريق التليفون . ثم يهرع إلى عشه
ليجده فى صورة باهرة ، وتطالعه صاحبتة بوجه يتألق
بالسعادة. وكانا يفضلان الحياة فى الحجرة الشرقية ، وفى بعض
الأحيان ينطلقان إلى أطراف القاهرة ، إلى ملتقيات العشاق ، أو
يقومان برحلات ليلية إلى الفيوم أو استراحة الطريق
الصحراوى . ولما علمت بماضيه الشعرى الذى بشر ببعث جديد
عملت على إيقاظه بمحفوظاتها المترمة . وكانت تحفظ تمثيلات
شوقى منذ عهد دراستها بالمعهد كما حفظت الكثير من أشعار
الغزل . وقال لها بإعجاب :

— ما أجمل حبك للشعر !

فحثته على تجديد شبابه الشعرى ولكنه قال بحذر :

— الشعر جميل ، ولكن أجمل منه أن نعيشه !

وقالت له يوما :

— أنت لم تسألنى من ماضى !

فقال وهو يقبلها :

— عندما تحل بنا بركة النشوة يملأنا اليقين فلا نسأل عن

شيء .

ولكنها كانت راغبة فى الحديث عن ماضيه فقالت :

— كان أبى مدرس لغة انجليزية ، من المدرسين الذين لا

ينسأهم تلاميذهم ، ولو كان على قيد الحياة يوم أعلمت رغبتى

فى دخول معهد التمثيل لشجعنى وباركنى ، ولكن أمى سيده
متدينة جدا وضيقه العقل جدا فدخلت المعهد على رغمها ، ولما
قررت أن أحترف الرقص ثارت على ، وثار معها أخوالى وعم
عجوز ، وانتهى النزاع بالقطيعة ، فهجرت أهلى .
— وكيف عشت وحدك ؟

— قاسمت زميلة من ممثلات المسرح بيتها .
وراح يداعب يدها البضة بإعجاب ، ثم سألها :
— أكنت تحبين الرقص من أول الأمر ؟

— كنت أحبه ولكنى حلمت بأن أكون ممثلة ، وبذلت جهدى
ولكنى فشلت فكنعت بهوايتى الأولى ..
وتجهم وجهه وهويسأل :
— وهل استبد بك يازيك ؟

— الحق أنه ألطف من غيره ، ولم أكن أجهل ما يعنيه العمل
فى ملهى ليلى !

ثم بحرارة صادقة :
— ولكنك حبيبى الأول والأخير ..
فضعها إليه ضمة امتنان ، وسأل :

— ولماذا لم ترجعى إلى أمك عقب فشلك فى التمثيل ؟
— كان قد فات الأوان ، ولسى كبرياشى ، وقد زاد من حدته
الفشل !

الفشل ! . اللعنة التى تدفن ولا تموت . ما أقطع ألا يستمع
لغنائك أحد ، ويموت حبك لسر الوجود . ويمسى الوجود بلا سر .
وتبعث الحشرات يوما لتتخرب كل شىء .
وشهد مكتبه زيارات خطيرة من خاله وأخته الوحيدة ،
ضربا إليه ألا يتزوج من (الراقصة) . وقال له خاله حسين كرم
المستشار :

... استمرار هذه العلاقة سيحول دون اختيارك مستشارا
يوما ما .

فقال له بشيء من الجفاف :

... ما فكرت فى ذلك ولا أردته ..

دافع عن سعادته بكل قواه ، ويقوة اليأس الذى خنقه .

وتبدى كطفل برىء دائم المرح ، حتى قال له مصطفى ضاحكا:

... خبرنا الآن عن معنى الحياة .

فضحك عمر ماليا ثم قال :

... هذا السؤال لا يلج علينا إلا حينما يفرغ قلبنا ..

الرنين الأجوف لا يصدر عن إناء ممتلئ . ولذلك فالنشوة هى

اليقين . ولذلك فإن أسمى الأخير أن وجود الحب بنشوة دائمة .

وقال مصطفى :

... أحيانا أرش لك وأحيانا أغبطك !

فلمعت عيناه فى انقصار قاستطرد مصطفى :

... إننى أنطلق فى حياتى المزدحمة كالصاروخ ولكنى ربما

تذكرت فى يوم من أيام الخماسين أنى أطوى جوانحى على فشل

قديم ، وربما اعترضنى سؤال شيطانى عن معنى وجودى ولكنى

سرعان ما أدفنته فى الأعماق كذكرى مخزية .

وسفعت رياح شتوية نوافذ المكتب وانقلب الأصيل ليلا ،

قاستطرد الذى يتحدى البرد بصلبته :

... لماذا نسال ؟ ، الحكاية أن العقيدة كانت تعطينا معنى

متكاملا ، وأننا نحاول أن نملأ الفراغ تحقيقا لقانون طبيعى ،

وأمس ثرت على لحظة ضعف ألمت بى وقلت إن تعليقاتى الفنية

لها معنى ، وبرنامج الماضى والحاضر بالراديو له معنى ،

وتمثلياتى فى التلفزيون لها معنى ، ولا يحق لى أن أسأل بعد

ذلك .

— يا لك من فارس !

وتعادي في تعداد انتصاراته قائلا :

— وأمس ثبت لي أنني قادر على حب زوجتي لدرجة لا تصدق حتى أنني اقترحت على رئيس التحرير أن أسجل الليلة في (خبر الأسبوع الفني) أما ابني عمر الذي سميت للأسف باسمك فمراهق شكس ، واهتمامه بالكرة يعادل اهتمامنا القديم بقلب العالم رأسا على عقب ..

قلب العالم رأسا على عقب ، انتهى في السجن . وسوف يخرج يوما ما . بعد بضعة أعوام . وسوف تتلاقى الأعين في دهشة مزعجة ، فليكثر بذلك غيري .
وقال مصطفى بلهجة أكثر جدية :

— اقترح على رئيس التحرير أن ألقى محاضرات عن التوعية الاشتراكية على موظفي وعمال الدار ..

— بأي صفة ؟

— بصفتي اشتراكيا متيقنا !

— وقبلت طبعاً ؟

— طبعاً ، ولكنني أتساءل : ما دامت الدولة تحضن المبادئ التقدمية وتطبقها أليس من الحكمة أن تهتم بأعمالنا الخاصة ؟
— كأن تببيع اللب والفشار وتتساءل عن معنى الوجود !

— أو أعشق لأبلغ اليقين !

— أو تسقط مريضاً بلا ملة !

وراحا يدخنان في صمت ، وإذا بعمر يسأله :

— كيف حالهم ؟

ابتسم مصطفى وقال :

— زينب عال ! استردت رصانتها ولكنها موهقة بالحمل ،
وشمة خبري يجب أن تعلمه !

تجلى اهتمام فى عينيه فقال الآخر :
— انها تفكر فى أن تبحث عن عمل بعد الولادة ..
لوح بيده متمعضا فاستطرد مصطفى:
— مترجمة مثلا ، أخشى أن تصمم يوما على هجر البيت ..
— لكنه بيتها ..
فحدجه بنظرة ساخرة وقال :
— يثينة مستغرقة فى دروسها ، وجميلة توشك أن تنسك !
فغض بصره فى ارتباك فعاد مصطفى يقول :
— أنا أقوم بالواجب ولا أتوانى عن نقدك مر النقد !
فقال عمرضاككا :
— مناقق عتيق ..
— أما زوجتى فلا تكف عن شن الحرب عليك .
— طبعاً .. طبعاً ..
— وكثيرا ما أذاع عنك عندما نكون منفردين وأرجع سلوكك
إلى (مرض نفسى خطير) ثم أؤكد لها فى نفس الوقت أنه مرض
غير معدى ..

ليس كمثـل وردة فى حبها أحد . هى مفرمة برجلها لحد الجنون ، مفرمة بعشها لحد العبادة وهى متفرغة لـحبها ، تقوم بجميع واجباتها بلا معين . وكان يمر ينظر إلى الجدران والآثاث واللوحات ، ويشم الورد فى الأصيص ، ويستمع إلى أنغام الحجرة الشرقية ، ثم يقول إنه آدم فى الجنة . وهى لا تطالبه بشيء وربما دفعها لـإبتياح مايلزمها من ثياب وحوائج . وزاد وزنها فعالجته بالمشى وبشئ من الرجيم وحرصت ما استطاعت على ألا يفرط فى طعام أو شراب . وشعر تعاما بأنها تذوب فى شخصه وتتفانى فى حبه وتتعلق به كأمل أخير . وفى ليالى الشتاء الطويلة انطويا على نفسيهما . وطال بهما السهر فى الحجرة الشرقية ، يفرقان فى أحاديث لا نهاية لها ، عن الماضى والحاضر والمستقبل ، والواقع والخيال ، والحقيقة والحلم ، تتخللها القيلات والملاطفات ، ولولا الشرفة المغلقة المطلة على الميدان ما روعتهما بين حين وآخر عواصف الشتاء أو انهلال المطر . واستنفدت ليالى الشتاء الأحاديث . وشملهما الصمت أوقاتا ولكنه همت مضمر للوضى والارتياح والنطمأنينة المتبادلة . وطافت به مرة خيالات قابتسم ، ومرة وجم . وتخيل تصادم سيارتين عند مفترق الطريق وتطاير رجل وقور فى العمر فجزع . وهمس الصوت الحنون :

— أين أنت؟
 فأجاب في شبه حياء :
 — لا شيء .
 فطوقت عنقه بذراعها وقالت :
 — أراهن أنه شيء هام !
 هز رأسه نفيا فسكتت برهة ثم بقطنه قالت :
 — لا أدري لم لا تزورك بثينة وجميلة في مكتبك ؟
 وكان يفكر في العنكبوت الذي يبني بيتا غاية في الغرابة
 ليمسحاد ذبابة ، ولكنه قال :
 — بثينة لا تريد .
 — هل بلغت رغبتك ؟
 — حملها إليها مصطفى .
 — لم تحدثني عن ذلك ؟
 — ليس للأمر أهمية .
 — بل يهمني كل ما يخصك .
 ومنعا للخيالات الغريبة لعب التلفزيون دوره فجعلنا ينتقلان
 بين القنوات الثلاث . وسأل مصطفى عنهما بالتليفون مرة
 قدمته إلى العش . ووجدت فيه رجلا يؤلف دون عناء فأغرته
 يتكرار الزيارة . وسأله مصطفى عن الشعر ومدى ما يلغه من
 خياله فأجابته وردة :
 — إنه يكتب شعرا .
 ولكن عمراحتج قائلا يا ذراء :
 — ما هو إلا أجهاض وقد مزقته ..
 فقال مصطفى مواسيا :
 — السعادة أهم من الشعر ..
 وأوشك أن يسأله (ولكن ما هي السعادة ؟) ولكنه أشفق من

العينين الروماديتين اللتين ترمقانه باهتمام . وبفضل التلفزيون والراديو ومصطفى تخففا من الحديث المعاد . وقال لنفسه (يا إلهي !) . وتخيل أنه استحوذ على قوة سحرية وراح يستعملها في تسلية الناس كأن يخفي في غمضة عين دار الأوبرا حتى يتجمع الناس ذاهلين ، ثم يعيدها في غمضة عين حتى يتصايح الناس من الذهول . ما أحوج الناس إلى جرعات مماثلة من السحر . وقال لنفسه مرة أخرى (يا إلهي !) . وحدجها بنظرة ناعمة فسألته :

— لماذا لا تدعو أصدقاءك للسمر واللهو ؟

فقال يهدوء :

— لا صديق لي إلا مصطفى !

وشعر بأنها تدارى إنكارا موضحا :

— لا أعتبر الزملاء والمعارف من الأصدقاء .

فعملت من ناحيتها على أن يكتثوا من الخروج ، وأن يمضيا السهرات ما بين السينما والمسرح ، يل والملاهي الليلية .
— هذا أفضل من البقاء وحدنا في البيت .

فوافق برأسه ولكنها رنت إليه بعتاب قائلة :

— أول مرة يخفق ذكاؤك في مجاملتي !

فقال بعد فوات الفرصة :

— قصدت الثناء على مشروعاتك اللطيفة ..

— أما أنا فلا أمل معاشرتك وحدك إلى الأبد .

— ولا أنا صدقينى ..

وسخط على غفلته . وقال لنفسه للمرة الثالثة (يا إلهي) .
أما مصطفى فلم يخف عنه إعجابه بسعادته . وقال له يوما وهو يجالسه في مكتبه :

— حدثنى عن حبك فإنه سيحملنى في النهاية على اعتناق

أراء جديدة فى الحياة ..
وقرأ فى عينيه نظرة ناقدة لا تخلو من خبث فسأله :
— هل هنت على بثينة لهذا الحد ؟
— أنت تعلم أنها مثالية وذات كبرياء ولكنها فى الأعماق
تعبدك !
— ألم أوحشها الغادرة ؟
— ستراك يوماً ما ، ولكن بالله حدثنى عن حبك ..
فقال مقطباً فى تحد .
— كأقوى ما يكون !
— تصريح سياسى ؟ !
— أنت منافق ولا حق لك فى الاطلاع على أسرار القلوب .
ضحك مصطفى طويلاً وقال :
— دعنى أصفه لك كما أتخيله ، الكلام اللذيذ نضيب ،
المداعبات اختصرت ، والشراب يكثر بلا حيلة ..
— مت بغيظك ..
يا للرعب . وردة محبة صادقة ، وجميلة . يا إلهى . ما العمل
لحماية النشوة من النعاس . أو لبعث الشعرا الذى مات . يا أصيل
الشتاء المعتم .
وسمها ليلة فى ملهى باريس الجديدة . دون أى توقع ظهرت
فوق المسرح مارجرىيت . تلقى ضربة من الماضى بلا حذر . ولكنه
ضبط أعصابه بقوة وضنت :
كلما رأيتك كثيراً ازدادت شهوة
وكلما ازدادت شهوتى زاد لهيبى
وهمست وردة :
— يا لها من حكمة ..
ولكن نظرة واحدة تتبادل بينك وبين مارجرىيت خليفة بأن

تقرأ ورده فيها كتابا . وأعلن عن رغبته في الذهاب قذها .
وتسكعها بالسيارة في ليل بارد وطرقات مقفرة . لا داعى للانفعال
ولا معنى له . لكن عودتها المياغنة شجعت الملل المتردد على
الاستفحال . وستقف على حافة الهاوية مرة أخرى . وعند اليأس
تنطلق القوى المدمرة ! .

ومن مكتبه قال لورده بالتليفون إنه مدمولحفل تكريم زميل
اختير مستشارا . وذهب إلى باريس الجديدة . ومضت مارجريت
تغنى وهو ينتظر .. ماذا جاء بى ؟ وبهذه السرعة ؟ . وعم
ابحث ؟ . هل انتهت ورده حقا ؟

وجاءت مارجريت مرفوعة الرأس وجاءت الشمبانزيا . وقالت
مشرقة الوجه :

— كان من المؤسف أن أسافر فجأة ..

— فجأة ؟

— تلقيت برقية من الخارج !

وتفحصها بحب استطلاع وهو يعجب للقوة التى تدفعه
نحوها . ودماها للذهاب معه فقالت :

— ليس الليلة ..

فخبط أعصابه متسائلا :

— متى ؟

— ليكن غدا .

وعاد إلى عشه حوالى الواحدة فوجد ورده جالسة بالحجرة
الشرقية فقبلها ثم سألها كما كان يسأل زينب :

— ما زلت مستيقظة ؟

فقالت بعتاب :

— طبعاً !

ورنت إليه طويلا ثم قالت :

— أرجو ألا تكون أفرطت فى الطعام أو الشراب ..
ولما استلقى فى البيجاما على الديوان زحفت نحوه حتى
الصقت شفتيها بشفتيه . ولم يكن راعيا فى شيء ألبته ولكنه
قال لنفسه (لتكون ليلة شرعية !) ولم يدر كيف يعتذر فى الليلة
التالية . وحدثته بالتليفون فلم يشر إلى غيابه المنتظر . ومضى
إلى باريس الجديدة وهو يهنئ نفسه على استهانته . ورأى
الضوء الأحمر يلون مارجريت بلون الجنيات الساحرات . وهزه
منظر عتقا النحيل ودسامة صوتها . وغشى دخان السجائر
القوائيس الأسبانية المدلاة من سقف مزخرف برسوم العرايا .
وتساءل من أين تتسلل النشوة إلى هذا المكان المطلق المعيا
برائحة الخمر والسجائر . وراء ممود ضخم مضىء من الداخل
رأى متعانقين فى زهول الأموات . ولكن كيف أقتلعت وردة من
نفسه كأنها زهرة صناعية ؟ . ولماذا يلح الموت على تذكيرنا بنفسه
بين كل عمل وآخر . ومنذا يستطيع أن يؤكد أن هؤلاء السكارى
موجودون ؟

ولما انطلقت بهما السيارة نحو الهرم قالت :
— الليل بارد ..
فشغل جهاز التدفئة فقالت :
— لم لا تذهب إلى بيتك ؟
— لا بيت لى ..
وأوقف السيارة فى محيط من الظلام تحت غطاء كثيف من
السحب وقال بسرور :
— لا نجم واحد ..
وضمها إلى صدره بعنف يكاد ألا يحتمل . ومن دوامة أنفاس
مختلطة همست :
— الظلام مخيف ..

فأسكتها بقبلة وقال :

— لا وقت للخوف .

مسها بديع . ولكن هذا لا شيء . المهم أن تلامس سرأسوار الحياة . واندفعت الكلمات المتقطعة في أنات كلغة السكوت في الليل وغنى الاتسجام أغنية تبشر بحياة أفضل . وصهرت حرارة الأنفاس قلوبها أضناها البرد . وغابت الأعين حتى عن ظلمة الليل . وتنهد فزاد في ظفر وأرتياح . وتنهد من ثقل الارتياح . يا ألهي . وتنهد في فتور وغم . ونظر إلى الظلام البهيم وساءل نفسه أين الخشوة الحقيقية ؟ وأين مارجريت فإن الظلام لم يبق منها على شيء . وعاد إلى عشه متجهم الباطن . وقفت قبالتها جامدة القسمات . حياها وهو يبتسم . ولبثا واقفين يرهة مرهقة . وارتقى على الديوان قائلا :

— أسف ..

فقاطعته :

— لا داعى لاختلاق المعاذير ..

وذهبت في الحجرة وجاءت ثم جلست على مقعد قريب وقالت:

— لاحظت جيدا أنك كنت بحاجة إلى تغيير ..

— ليس الأمر بهذه البساطة ..

فقالت بعصبية لم تفلح في مقاومتها :

— التحقيق مهمة لا تسر ، ولا داعى لعذاب لا موجب له . إنى

أسألك سؤالا واضحا : هل فشلنا ؟

فقال بصدق وخمول معا :

— لا مثيل لك ، إنى أو من بذلك .

وهي تنظر بعيدا .

— كنت مع امرأة ؟

تردد قليلا وقال :

— إن أردت الحقيقة فأفنى لم أبرأ بعد من المرض !

فقال بحدة لأول مرة :

— لكنه مرض لا يجد علاجاً إلا عند امرأة ..

ثم يهدوء قالت :

— ليس عندي لك إلا الحب فإن زهدت فيه أنتهى كل شيء ..

وراقبت صمته بياس ثم استطردت :

— وتقلب الأهواء فى الشباب داء له علاج أما فى العقاء أمثالك فلا علاج له .

وأجال بصره فى الحجرة يائسا وقال :

— هل أنا مجنون ؟

— العجيب أن شخصيتك لا توحى بئى نزق !

— لكنى متهم بالجنون لسلوكى ..

هتفت بحدة :

— إن كنت تقصد معاشرتك لى فارجع إلى زوجتك !

— لا زوجة لى .

— إذن فلأذهب أنا ، مشكلتى أبسط من مشكلة زوجتك لأننى

لن أعدم عملا أو مسكنا ..

وخزه قولها وأوشك أن يصرخ فى وجهها (اذهبى) ولكن

مد ساقبيه وأغمض عينيه .

— كنت مع امرأة ؟

فقال باستهانة وضجر :

— أنت تعرفين .

— من ؟

— امرأة .

— ولكن من تكون ؟



(ليس لك عندي إلا الحب فإن زهدت فيه إنتهى كل شيء)

- لا يهم .
- عرفتُها قبل أن تعرفنى ؟
- مقابلة عابرة ؟
- تحبها ؟
- كلا .
- لم ذهبت معها إذن ؟
- لعلها رغبة طارئة ؟
- يعنى !
- وهل ترضخ لأى رقبة ؟
- ليس فى جميع الأحوال .
- متى ؟
- باستهانة وضجر :
- عند الإحساس بالمرض .
- هل أنت مولع بالنساء ؟
- كلا .
- ألم تكن تحببى ؟
- بلى .
- ولكنك لم تعد تحببى ..
- أحبك ولكن عاودنى المرض ..
- فقلت بحدّة .
- لاحظت تغيرك منذ أيام .
- منذ عاودنى المرض .
- فهتفت بحنق :
- المرض .. المرض !
- ثم وهى تشظر نحوه بسحنة منقلبة :
- هل ستقابلها مرة أخرى ؟

— لا أدري ..

— أيسرك أن تعذبتي ؟

فننخ قاشلا :

— قليلا من الراحة من فضلك .

وذهب بمارجريت إلى استراحة الطريق الصحراوي في

ليلة شتاء باردة ولكنها صافية السماء مرصعة بالنجوم . وعند

العودة قالت برقة :

— أليس من الأفضل أن يكون لنا مأوى ؟

فاجاب بغموض :

— كلا ..

وقد اقتنع بأنه لا جدوى من الاستمرار ولكنها استاءت من

اجابته وقالت ببرود :

— أنا لا أرتاح لمغامرات الطرق .

فأوصلها إلى الفندق دون أن ينبس بكلمة .

نشوة الحب لا تدوم ونشوة الجنس أقصر من أن يكون لها أثر.
وماذا يفعل الجائع النهم إذا لم يجد الغذاء . والعاصفة الهوجاء
تجتاحك لتقتلك . والاستقرار مات ولا سبيل إلى بعثه . وثمة
راقصة سمراء بجاريس الجديدة أعجبت به رشاقة قدها ومرح
نظرتها فذهب إلى الملهى دون مبالا بالآخرين . وحيته مارجريت
من فوق المسرح بابتسامة فابتسم لها ثم دعا السمرام إلى
مجالسته . قد تظن مارجريت أنه يمارس معها العوبة غليظة من
الاعيب الغرام ولكنه فقد فى العاصفة روح الدعابة . وأغرى
السمرام بالنقود لتذهب معه ففعلت . ليس أفضل ولكن خيل إليه
أن قلبه اهتز مرة وهى تضحك . على هذا القلب أن يهتز أو أن
يموت . لا الشعر ولا الخمر ولا الحب فأى نداء قلبى تلك النشوة
المستعصية !

وكل ليلة يذهب بامرأة. من هذا الملهى أو ذاك أو حتى من
الطريق . وعندما ذهب إلى كابيرى ودعا راقصة تدعى منى هرع
إليه ياربك مرحبا مستبشرا فحنق على فرحته التى اعتدها فعيا
لجهاده الخائب .

— اكسلانس .. هل ..

فعبس فى وجهه بجفاء أجفله ومضى بمنى وهو يضمها فى
حضنه أرعشته رغبة غريبة فى قتلها . وتخيل أنه يشق صدرها .

بسكين فيعثر فى داخله عما يبحث عنه . القتل هو الوجه الخلقى
للخلق وهو تكملة الدورة المفعزة التى لا تتكلم . وهمست منى :
— مالك !

فقال وهو يصحو منزعجا .

— لا شيء ، إنه الظلام ..

— ولكن لا أحد حولنا ..

وساق السيارة بسرعة جنونية حتى قبضت على ساعده ، ثم
هددته بالصراخ . وهو يغير ملابسه قال لنفسه لا بد من شيء ،
الشيء أو الجنون أو الموت . وجلست ورده فى الفراش وهى
تقول :

— أنا ذاهبة ..

فقال برقة :

— إنى مسئول عنك .

— لا أريد شيئا ..

وعادت تقول بعد صمت :

— من المحزن أنى أحببتك بصدق .

فقال بملل :

— ولكنك لا تحبرين على .

فقالت بلهجة قاطعة :

— نغد الصبر .

وعاقتها نفسه فلم يعقب .

وعاد فى الليلة التالية فلم يجد لها أثرا . ابتسم فى ارتياح
واستلقى ببديلته على الديوان مستمتعا بالشقة الصامتة الخالية .
وكل ليلة ساق إليها امرأة جديدة .

وقال له مصطفى وهو يضحك :

— أهلا بأكبر زير نساء فى القارة الأفريقية !

ابتسم فى فتور فاستطرد الرجل :

— سرىك يذيع يوما بعد يوم ، حدثنى عنك أكثر من زميل من زملائى ، وترامت أخبارك إلى بعض زملائك بالنادى ، وهم يتساءلون ماذا قلبه وكيف جدد شبابه ؟
قال بنفور :

— الحق إنى أكره النساء ..

ثم بلهجة جدية :

— أفورغ ما فى نفسك من اضطرابات كى تستقر بعد ذلك بصفة نهائية .

وجاء الربيع فسره أن تنطلق السهرات من القاعات المغلقة إلى الحدائق ، وعانى الضجر والأحلام المرهقة . وفى أوقات تسلى بقراءة الشعر فهتت نفسه إلى أشعار الهند وفارس ، وحملته مغامراته الليلية إلى كبرى مرة أخرى وجلس تحت التكعيبية يشرب كأسا ويتلقى نفحات الربيع من وراء السرو . وعزفت أنغام راقصة فإذا بوردة فوق المسرح ، لم يدهش لذلك ألفته فلم ينزعج ولم يبتسم . كان ذلك فى الخريف ، وتواصلت الفرحة بالنشوة بالحب ثم كان الجفاء ، الدورات المفرغة فمتى يحطمها القلب المحزون ، متى يخترق الغضاء لغير رجعة ، وما هى تلمحه ثم تواصل رقصها . وما هو ياربك يسترق النظرات فى قلق مضحك . أما هو فخلا من القرارات عزمه ، ورأى عقب الاستعراضات وردة غير بعيدة فدعاها إلى مأدقته ، وجاءت باسمة الثغر كأن ما كان لم يكن ، وطلب الشراب الذى اشتهر به فى الملاهى الليلية . وقال لها بصديق :

— الحق إنى أسف يا وردة .

فقالت وهى تبتسم ابتسامة غامضة :

— لا يجب أن تأسف على ما فات ..

ثم ينبرة ساحرة :
 — وتجربة الحب شمينه ولو بالعذاب !
 فقال وهو يعض شفتيه :
 — لست طليعيًا ..
 فقالت بصوت مهموس :
 — اذن فلندع لك بالسلامة .
 وتلاقت عندهما نظرات النساء اللاتي مضى بهن ليلة بعد
 أخرى فابتسمت ورده وتمتم هو :
 — بلا رغبة !
 فتساءلت يرفع حاجبها فقال :
 — عرفتهن بلا استثناء ولكن بلا رغبة !
 — ولماذا إذن ؟
 — لأن اللحظة الإلهية لاتجود بنفسها أكثر من ثانية واحدة !
 فقالت بامتعاض :
 — ما كان أقساك ! إنكم لاتؤمنون بالحب إلا إذا كفرنا به ..
 — ربما ، ولكن مشكلتي غير ذلك ..
 وحمل إليه النسيم من الحقول الغارقة في الظلام شذا
 مسكرا من زهر البرتقال فتح له عوالم خفية من المسرات ،
 فطرب طربا استخفه وأخرجه من قيود الاتزان فسألها يشغف :
 — خبيريني يا ورده لماذا تعيشين ؟
 فهزت منكبيها وأتت على كأسها . ولكنه كرر سؤاله بجدية
 لا لبس فيها فقالت :
 — وهل لهذا السؤال من معنى ؟
 — لا بأس أن نسأله أحيانا .
 — إني أعيش ، هذا كل ما هنالك .
 — بل إني أنتظر جوابا أفضل ..

فكرت قليلا ثم قالت :

— لننقل إنى أحب الرقص ، والإعجاب ، وأتطلع إنى الحب
الحقيقى !

— هذا يعنى أن الحياة عندك هى الحب ..

— ليكن ..

— ألم تحبى مرة ثم كرهت الحب ؟

فقالت بامتعاض :

— غيرى فعل ..

— وأنت ؟

— كلا ..

— كم مرة أحببت ؟

— قلت لك يوما ..

ولكنه قاطعها :

— لنندع جانبا ما قلته يوما ، صارحينى الآن بكل شىء ..

— هل هو طبيعك الوحشى يفتيك ..

— ألا تريدین أن تتكلمى ؟

— قلت ما عندى ..

فتنهذ أسفا ، ثم سألها محموما :

— والله، ما موقفك منه ؟

حدجته بنظر ارتياح حادة فقال بثوسل :

— أجيبينى من فضلك يا وردة .

— أو من به ..

— بيقين ؟

— طبعا ..

— من أين جاء اليقين ؟

— إنه موجود وكفى ..

...أتفكرين فيه كثيرا ؟

ضحكت كالمرغمة وقالت :

...عند كل حاجة أو شدة ..

...وفيما عدا ذلك ؟

فقلت بحدة :

— ألا ترى أنك تحب تعذيب الآخرين ؟

ولبت في الملهى حتى الثالثة صباحا ثم انطلق بسيارته —
وحده — إلى الطريق الصحراوي . وقال أن خروجه وحده هذه
الليلة يعتبر تطورا ذا شأن . ثم أوقف السيارة في جانب من
الطريق المقفر وغادرها إلى ظلمة شاملة . ظلمة غريبة كثيفة
بلا ضوء إنسانى واحد . لا يذكر أنه رأى منظرا مثل هذا من قبل ،
فقد اختفت الأرض والفراغ . ووقف هو مفقودا تماما في السواد ،
ورفع رأسه قبل أن تألف عيناه الظلام فرأى في القبة الهائلة
الآلاف النجوم عناقيد وأشكالا ووجدانا . وهب الهواء جافا لطيفا
منعشا موحدا بين أجزاء الكون . ويعدد رمال الصحراء التي
أخفاها الظلام انكشمت همسات أجيال وأجيال من الآلام والآمال
والأسئلة الضائعة . وقال شيء إنه لا ألم بلا سبب وأن اللحظة
القاتنة الخاطفة يمكن أن تمتد في مكان ما إلى الأبد . وقد يتغير
كل شيء إذا نطق الصمت وها أنا أضرع إلى الصمت أن ينطق .
وإلى حبة الرمل أن تطلق قواها الكامنة وأن تحررتى من
قضبان عجزى المرهق . وما يمتعنى من الصراخ إلا انعدام ما
يرجع الصدى . وأسند جسمه إلى السيارة ونظر نحو الأفق .
وأطال وأمعن النظر . وثمة تغير جذب البصر . رق الظلام .
وانبعثت فيه شفافية . وتكون خط فى بطاء شديد ومضى ينضج
بلون وضئ عجيب . كسر أو عبير . ثم تؤكد فانبعثت دفقات من
البهجة والضياء والنمسان . وفجأة رقص القلب بفرحة ثملة .

واجتاح السرور مخاوفه وأحزانه . وشد البصر إلى أفراح الضياء
يكاد ينتزع من محاجره . وارتفع رأسه بقوة تبشربأنه لن ينتنى .
وشملته سعادة غامرة جنونية أسرة وطرب رقصت له الكائنات
فى أربعة أركان المعمورة . وكل جارحة رنمت وكل حاسة سكرت
واندفتت الشكوك والمخاوف والمتاعب . وأظله يقين عجيب ذو ثقل
يقطر منه السلام والطمأنينة . وملأته ثقة لا عهد له بها وعدته
بتحقيق أى شىء يريد . ولكنه ارتفع فوق أى رغبة وترامت
الدنيا تحت قدميه حفنة من تراب . لا شىء . لا أسأل صحة ولا
سلاما ولا أمانا ولا جاها ولا عمرا . ولتأت النهاية فى هذه اللحظة
فهى أمنية الأمانى .

ولبث يلهث ويتقلب فى النشوة . ويتعلق بجنون بالافق .
تنفس تنفسا عميقا كأنما ليسترد شيئا من قوته عقب شوط
من الركض المذهل . وشعوبدهيب أت من بعيد . من أعماق نفسه .
دبيب إفاقة ينذر بالهبوط إلى الأرض . عبثا حاول دفعه أو
تجنبه . أو تأخير . رأسخ كالقدر . خفيف كالطعلب . ساخر
كالموت . تنهد من الأعماق واستقبل موجات من الحزن . وأفاق
والضياء يضحك .

رجع إلى مجلسه بالسيارة . ودفعها بلا حماس . ونظر إلى
الطريق بفتور كأنما يخاطب شخصا أمامه :

— هذه هى النشوة .

وقال بعد صمت :

— اليقين بلا جدال ولا منطق ..

ثم بصوت مسموع أكثر :

— أنفاس المجهول وهمسات السر ..

وتساءل وهو يزيد من سرعة السيارة :

— ألا يستحق أن ينبذ كل شىء من أجله ؟



إن خروجه وحده هذه الليلة يعتبر تطورا ذا شأن

استيقظ في عشه الخالي على رنين جرس التليفون فتناول
السماعة ، وجاءه صوت مصطفى :
— أين كنت طوال الليل ؟
ولما لم يجب قال :
— زينب في مستشفى الولادة .
ومرت لحظات قبل أن يفقه المعنى ثم تذكر أنه زوج وأب وأن
مزيذا من الأيوة ينتظروه .
وفي بهو الاستقبال بالمستشفى وجد مصطفى وبثينة
وعليات زوجة مصطفى وهي امرأة رزينة قوية الشخصية في
الأربعين من العمر ممثلة مع ميل إلى القصر مستديرة الوجه
والقسمات . ولما جاء دور بثينة في المصافحات مدت له يدها
وهي تغض البصر لتخفى وجومها .
وقال مصطفى :
— هي في حجرة الولادة ، وكل شيء طبيعي ..
وهم بالذهاب إلى الحجرة فقالت عليات بحذر :
— كنت بالداخل ، وها أنا ذاهبة إليها ..
— ألا أدخل أيضا ؟
فقال مصطفى :
— يحسن تجنب الانفعالات الطارئة ..



وهم بالذهاب إلى الحجرة ..

ولم يطل بهم الانتظار فقد رجعت عليات متهللة الوجه وهى تقول
لعمر :

— مبارك عليك ولى العهد ، وزينب فى طريقها محمولة
إلى حجرتها ..

نظر إلى بثينة يشوق ، ثم جلس إلى جانبها واضعاً راحته
فوق يدها دون كلام فتسكتها بعض الوقت حياء ثم سحبتها برقة.
وقال مصطفى وهى يتابع الحركات الخفية :

— من حسن الحظ أن المستشفيات من الأماكن التى تنسى
فيها الخصومات ..

فسأله وما يزال يشعر بخيبة أمل لانسحاب اليد :

— متى جاءت إلى هنا ؟

— حوالى منتصف الليل ..

والمناقشة دأثرة مع وردة فى أعياء تنعشه الشمبانيا .

— ولم تذهبي إلى المدرسة ؟ ..

— طبعاً جاءت مع مامتها ..

— شكراً لك يا عليات وشكراً لك ..

فقالت عليات وهى تغادرهم إلى حجرة زينب (عفوا) ثم قال
مصطفى :

— وقد تعبت جداً عند الفجر ..

أه .. الفجر فى الصحراء والنشوة الخيالية الخالدة . ولكن
أين ؟ . وأستأذن مصطفى فى الذهاب لينام فلبث هو وبثينة
وحدهما ينتظران . وانتبه بحساسية إلى هرج موقفه . وقال
بعطف :

— لم تنامى يا بثينة ؟

فهزت رأسها بالإيجاب وهى تنظر إلى سجادة البهو
السحابية اللون :

— ألا ترغبين فى محادثتى ؟
 فخرجت من المقاطعة الصريحة وتساءلت :
 — ماذا أقول ؟
 — أى شىء ، ومهما يكن من أمر فأنا أبوك وصديقك وما
 بيننا من علاقة لا يمكن أن ينفصم ..
 ولادت بالصمت فى تأثر شديد .
 — ألا توافقيننى على ذلك ؟
 فهزت رأسها بالإيجاب ورسمت شفتها لفظ الموافقة .
 — أنت زملائة ، وهذا طبيعى ، ومهما يكن من الأمر فهو لا
 يمسك مباشرة ، ومقاطعتك لى غير مقبولة ، وقد دعوتك مرارا
 لزيارتى فلماذا لم تحضرى ؟
 — لم أستطع ..
 — هل منعك أحد ؟
 — كلا ، ولكننى كنت حزينة جدا ..
 — أكان حزنك أكبر من حبنا ؟
 فقالت بمرارة :
 — لم تزرنا مرة واحدة .
 — لم يكن ذلك بالممكن ، ولكنى دعوتك مرارا فكان عليك أن
 تأتى ، وقد نفص امتناعك راحتى ولم تكن فى حاجة إلى مزيد ..
 فقطبعت لتكتسب صلابة تطرد بها حنان الدمع وقالت :
 منعنى حزنى ..
 — يا للأسف لا أحب لك السلبية ، وكنت فى حاجة إليك فى
 غربتى !
 وابتسم ليخفف من توتر الجو ثم قال :
 — حسينا عتايأ ، لا وقت الآن لذلك ..
 وربت على منكبيها وسألها مغيرا الجرى :

- ما أخبار الشعر ؟
- فابتسمت ابتسامة خفيفة لأول مرة فقال بحرارة :
- لعلنا لم نكون فى يوم من الأيام أقرب ما يكون لبعضنا ما
نحن فيه اليوم !
- ماذا تعنى ؟
- يخيّل إلى أننا حول منبع واحد ..
- حولت إليه عينيهما الخضراوين مستزيدة فقال :
- رجعت إلى الشعر أقرأه وأحاوله ..
- حقا ؟
- مجرد محاولات فاشلة ..
- لمة ؟
- لا أدرى ، ربما لأن الغبار أكتف من أن يزول بنفخة واحدة
أو لأن أزمى أقوى من الشعر ..
- أزمة ؟
- أعنى مرضى .. !
- فابتسمت وهى تنظر إلى الأرض فسألها بانكار :
- ألا تصدقيننى ؟
- أصدقك دائما !
- فحزّه قولها وقال :
- يجب أن تصدقينى رغم الكذبة الوحيدة فى حياتنا ، كانت
كذبة ضرورة ولن تتكرر ، أما مرضى فهو حقيقى ..
- ألم تعرف بعد ما هو ؟
- فكر قليلا ثم قال :
- عذاب يعالج بالصبر الطويل ..
- فتساءلت فى اشفاق :
- بعيدا عنا ؟

فقال يهدوء و يقين :

— أنا أعيش وحيدا !

فرمقته بنظرة استغراب فقال :

— وحيدا ، صدقينى ..

— ولكن ..

— الآن وحيدا .

فتساءلت بلهفة أرضت مواطنك :

— ولم لم تعد يا بابا ؟

فلثم خدها المورد وقال :

— لعله من الخير أن أبقى كذلك ..

— كلا ..

وأمسكت بيده وكررت :

— كلا ..

وجاءت عليات لتدعوه إلى الحجرة فذهب . رأى زينب

مغطاة بعلاء بيضاء إلا الوجه ..

وتبدى الوجه شديد الشحوب ممصوم الحيوية تصف

مغمض العينين . شعري عطف واحترام ورثاء . وقال ها هي تخلق

على حين يعجز هو عن الخلق . وتمتم بشيء من الارتباك :

— حمدا لله على سلامتك .. فردت بشبه ابتسام فقال :

— مبارك عليك ولى العهد !

وجلس محاصرا بالحرج حتى خلف عنه دخول عليات وبثينة

وأحسنت عليات ملء الجو بالنوادير والملح فمر الوقت دون إرهاق

وجاءوا بالمولود فى فراشه .. وكشفوا عن وجهه . رأى كتلة لحمية

متموجة حمراء ، مطوطة القسمات ، ليس من اليسير أن

يتصور أن سيكون لها شكل فضلا عن شكل مقبول . ولكنه تذكر

تجارب مماثلة سابقة تنحنى إحداها فوق فراش الوليد لترمقه

بدهشة وحنان من عينيها الخضراوين . ولم يجد نحوه شعورا
مميزا غير أنه أدرك أنه سيحبه كما ينبغي وقنع منه بنظرة حياء
متسائلة . لو لم تكن عاجزا عن التعبير كأبيك لسألتك عن
مشاعرك وعن ذكرياتك عن العالم الذى جئت منه لتوك .

وسألت مليات :

— هل اخترتم له اسما ؟

فأجابت بثينة :

— سمير ..

اذن فليحبه اسمه من الضجر . وقالت عليات بلهجة ذات

مغزى :

— لتكن نشأته فى أحضان والديه !

ورغم انسياقه فى أسرار الخلق لم يساوره أدنى أمل فى
التغيير . ولا خرج من غريته الأبدية . ولم يملأ الوليد الشفرة التى
تفصل بينه وبين زينب . وراح يتساءل حتى متى يبقى فى
مجلسه محطاً للنظرات والتساؤل .

وأزف وقت الغداء فاستأذن فى الانصراف وذهب . ولحقت به
بثينة خارج الحجرة وقد استردت شجاعتها الطبيعية الصريحة
معه . قالت :

— بابا .. لن تبقى وحيدا ..

وكان يعلم أنه لم يعد بحاجة إلى شقيقته الخالية ، وأنه يحلم
بوحدة جديدة ، فتساءل مستسلما :

— ماذا تريدین ؟

— أن تعود ..

فلثم خدها وهو يقول :

— على شرط ألا تضيقوا بى ..

وتأبطت ذراعه ، وأوصلته حتى الباب الخارجى بوجه مشرق .

العود إلى البيت دون تغيير . لا كراهية لزيّن ولا حب لها .
واختفاء الكراهية دليل على اختفاء زينب نفسها . ودليل انتصار
نهاش على دنياها . وانتصار الغربة الزاحفة . وقال لها :
— علينا أن نتقبل محنتنا بشجاعة .

وتبدت شجاعة حقا . حتى حجرت هجرتها . وقال لها يتأثر :
— أنت مثال للكمال .

وانقطع عن مغامرات الليل الخائبة . ووهبته بثينة جميلة
وسمير مسرات لا تشكر . والنيل يجرى تحت الشرفة بلا توقف
وهو يسأل بلهفة متى تعود رحمة الفجر في الصحراء . واعتكف
في حجرتة طول الليل يقرأ ويتأمل حتى يجرى الفجر فيمضي
إلى الشرفة وينظر إلى الأفق يتساءل أين الرحمة أين . وما هي
ترانيم فارس والهند والمرب المليئة بالأسرار ولكن أين السعادة
أين ! . ولم تشعر بالكآبة وأنت بين هذه الجدران الرحيمة ؟ . وما
هذا الشعور المقلق الذي يهمس لك بأنك ضيف غريب موشك على
الرحيل . وإلى أين ؟ . وقال مصطفى :

— الحمد لله على أن عاد كل شيء إلى أصله .

فقال بأزدراء :

— لم يعد شيء إلى أصله ..

فتجنب المناقشة في إشفاق فقال عمر بتحد :

— لم أعد إلى البيت ، لم أعد إلى العمل ..

— ولكن يا عزيزي ..

— ولا يعرف أحد ماذا تقول الساعة التالية .

وفيما كان بمكتبه عصرًا إذ فتح الباب ودخل رجل . ربعة
متين البنيان ، شاحب اللون ، كبير الوجه ، حليق الرأس ، قوى
الفكين والأنف ، يشع من عينييه العسليتين نور حاد . نظر إليه
عمر منكرًا لأول وهلة ثم انتتر واقفا وهو يهتف بصوت متهدج :
— عثمان خليل !

وتعانقا طويلا وعمر فى غاية من الانفعال ، ثم جلسا على
المقعدين المتقابلين أمام المكتب ولسانه لا يتوقف عن كلمات
الترحيب والتهنئة والتبريك ، والآخر يبتسم وكأنه لا يجد ما
يقوله . وحل صمت قصير كرد فعل فراحا يتبادلان النظر .
وتموجت الخيلة بالذكريات . وتحركت فى الأعماق مشاعر غريبة
منذرة بكل ظن . وارتفع مد حاملا دفعات من القلق والتوجس .
وطالما طافت به لحظة اللقاء المرتقبة وطالما عمل لها ألف حساب
ولكنها حلت رغم ذلك بغتة كمفاجأة غير ممكنة التوقع . ولم
يقدر الزمن ونسى كل شيء فى العهد الأخير ومع ذلك فإن المدة
لم تنقض بالتمام ولم يستنتج إلا الساعة أن ثلاثة أرباعها قد
انقضى ! . وها هو يلقي أبعاد ما يكون عن الاستعداد النفسى
لذلك . رجل خارج من السجن إلى الدنيا ورجل يتحفظ للخروج
من الدنيا إلى عالم مجهول .

— يا له من عمر طويل !

ابتسم عثمان ، فقال عمر :

— لم تغب عنا فيه ساعة واحدة ، وها هو وجهك مصمم على
الحياة كعادتك !

فقال بصوت حلقى لسم :



أريد أن تتحدث وأن أسمع

... وأنت لم تكدي تتغير في الصورة ولكن صحتك ليست كما يجب !

سر للملاحظة الأخيرة وقال :

... بلى ، مرضت ، وعانيت أزمات غريبة ، ولكن من فضلك لا تجعل منى موضوعا للحديث ، أريد أن تتحدث وأن أسمع .

ودخل فراش بالكوكا والقهوة ثم قال عثمان :

... مضت أعوام وأعوام ، اليوم بسنة في قرفه والسنة بيوم في تفاهتها ، ولكن لا تنتظر أن أتحدث عن حياة السجن .

... مفهوم .. أسف .. ولكن متى خرجت ؟

... منذ أسبوعين ؟

... وكيف لم تحضر إلا اليوم ؟

... سافرت من فوري إلى القرية وكنت مريضا بالانفلوانزا ولما شفيت رجعت إلى القاهرة .

لا فائدة من الهرب إلى الأحاديث الجانبية . واحساسك بالذنب يزداد حدة .

... كم مذبنا أننا لم نستطع زيارتك ..

فقال عثمان بوجه لا ينبىء عن شيء :

... كان سيقبض على أى زائر من غير الأهل .

... وكم وددنا لو كان في الإمكان أن نطمئن عليك .

... الحق أننا عوملنا معاملة سيئة جدا أول الأمر ولكنها

تغيرت بطبيعة الحال بعد قيام الثورة .

فتقلص وجه عمرا بيا عن أسفه فاستطرد الآخر :

... ولكن ثبت لى أنه إذا قذف بنا إلى الحجيم فإننا حتما

سنعتاد ونألف الزبانية !

وأذعن عمر لإحساسه بالذنب فاعترف قائلا :

... العدل كان يقضى بأن تذهب معك إلى السجن ..

فقال بسخرية :

— القانون هو الذى أدخلنى السجن لا العدل !

فتمتم عمر بخشوع :

— على أى حال فنحن مدينون لك بحريتنا وربما بحياتنا ..

— أليس ذلك ما كنت تفعله لو القبض القى عليك أنت و كنت

أنا من الهاربين ؟

فلم ينبس عمر بكلمة هياء وارتاباكا واستطرد عثمان

بمرارة :

— وما أنا فى الدنيا من جديد وفى منتصف الحلقة

الخامسة .

فقال عمر بحزن :

— قد عشناها خارج الأسوار ولكن يخيّل إلى أننا لم نفعل

شيئا ذا بال ..

فهتف محتجا :

— لا تقل ذلك ، لا تفقدنى البقية الباقية من العزاء .

تحركت مخاوفه مرة أخرى وشعر بأنه جثة منسية فوق سطح

الأرض . وقال :

— مارسنا عملا ، وتزوجنا ، وأنجبنا ، ولكن يخيّل إلى أنه

ليس لى ما أحصده إلا الهباء ، ولكن معذرة لا يحق لى أن أتكلم
عن نفسى .

— ولكننا نصفان متكاملان !

الماضى المثقضى والحساب العسير . وقال بفخار فى

بدروم بيت مصطفى المنياوى (خليتنا قبضة من حديد لا يمكن

أن تنكسر . ونحن نعمل للإتسانية جمعاء لا للوطن وحده .

ونحن نبشر بدولة البشرية . نحن نخلق بالشورة والعلم

عالم الغد المسحور)

ولما أصابته القرعة قال (أنا سعيد ، مصطفى عصبى وأنت عريس ، وغدا تلقى قنبلة على خنزير من المولعين بمص الدماء)

— كان التدبير محكما ، ولولا رصاصة طائشة أصابت ساقك لما قبضوا عليك ..

— أجل ، وماذا فعلت أنت ومصطفى ؟

— سهرنا حتى الصبح والحزن يقتلنا ..

فضحك ضحكة قصيرة وسأل :

— ألم تخافا أن أعترف ؟

— فكر مصطفى في الهرب ودعائى إلى ذلك ، وفكرنا فى

الاختفاء ، وذقنا أياما تعيسة ولكنك كنت فوق مستوى الإنسان وكنا وما زلنا لا شيء ..

ويعتاد الإنسان الجحيم كما يعتاد التضحية بالغير ! ومهما يكن من قدارة الفأر فإن منظره فى المصيدة يثير الرثاء .

وأشار عثمان إلى المساعدات التى تلقاها والداء — قبل وفاتهما — من عمر ولكن عمر أبى أن يسمع بقية الإشارة. وعند ذلك قال عثمان :

— لا أريد أن أسف على ما فات ، فقد اخترت مصيرى بوعى كامل ، والآن أن لك أن — . ثنى عن أخبار الدنيا ؟

فقال عمر يدهاء وهو يرنو إلى النجاة من بعيد :

— ليكون المستقبل أهم ما يهمنا ..

— المستقبل ؟ .. أجل .. سأنفذ الفبار على اليسانس ..

— وإليك مكتبى تحت أمرك ..

— عظيم ، ولا اعتراض لأحد فى الجهات الرسمية على أن أعمل ..

— إذن فلتبدأ من اليوم ..

.. شكرا .. ولكن حدثنى عن أخبار الدنيا ؟
لا يريد أن يتزحزح . يا للغرابة . كأنك لم ترتبط به يوما ما .
وكأنك لم ترغب قط فى هذا اللقاء . لا شيء مشترك بينكما
إلا تاريخ ميت ولا يوحى إليك إلا بمشاعر الذنب والخوف
وازدياء النفس . ولم يدر بعد بأن كتب الغيب حلت محل
الاشتراكية فى مكتبتك . وها هو يعترضك كقدر وأنت تهرب من
الاهل والدنيا .

وضاق عثمان بصمته فسأله مستدرجا :

.. حدثنى عن أصحابنا ؟

.. أوه .. تفرقوا ، لا أعرف منهم اليوم إلا مصطفى المنياوى ..

.. وماذا فعلتم ؟

.. الحق أن السنوات التى تلت القبض عليكم اتسمت
بالعنف والارهاب فلم يكن يد من أن نركن إلى الصمت ، ثم
انشغل كل بعمله ، وتقدم بنا العمر على نحو ما ، ثم قامت الثورة
وأنهار العالم القديم ..

قبض عثمان على نقنه العريضة بيده ، وعكست عيناه
المشعتان نظرة باردة لعله ينعى الأعوام الضائعة . ما أبغض هذا
الموقف الذى أرق نومه مرات ككاپوس . وقال عثمان :

.. طالما ساءلت نفسك لماذا ، أجل لماذا ، وبدأت لى الحياة خدعة
سمجة ، وعجبت للأقدار التى أنهالت على رأسى ، أقدام أناس
تعماء من صميم الشعب الذى سجنحت من أجله ، وتساءلت لماذا ،
هل تعنى الحياة أن نستوصى بالجبن والعماء ؟ ولكن ليس كذلك
الزمل ولا بقية الحشرات ، ولا أطيل عليك فقد استرددت إيمانى ..
يا لسوء الحظ !

.. استرددت إيمانى فوق الصخور وتحت أشعة الشمس .
وأكدت لنفسى بأن العمر لم يضع هدرا ، وأن ملايين الضحايا

المجهولين منذ عهد القرد قد رفعوا الإنسان إلى مرتبة سامية !
أحنى عمر رأسه إعراباً عن الموافقة والاحترام ! واستطرد
عثمان بنيرة لم تخل من حلق :

— من الحق التعرض بماض مسلول ما دام المستقبل ينهض
راسخاً بصورة أقوى ملايين المرات من جبن الجبناء .

فقبض على أداة نجاة وسط العاصفة الهوجاء قائلاً :

— عل أى حال فقد تقوض العالم القديم المرذول وقامت ثورة
حقيقية فتحقق حلم من أحلامك ..

انظر إلى وجهه كيف يتجههم ، وتتجمع فيه عاصفة مريدة .
وها أنت تتجرع هزيمة فى ميدان لم يعد يهيك فى شيء . ألا
يعلم بأننى لم يعد يهمنى شيء !
وقال عثمان بأسف :

— لو لم تسارعوا إلى الجحور لما فقدتم الميدان .

— لم تكن لدينا قوة ولا أتباع فى الشعب يعتد بهم ، ولو
وقعت المعجزة على أيدينا لهبت قارات للقضاء علينا ..

— المؤسف أن المرضى لا يفكرون إلا فى المرض ..

— وهل ترى من العقل أن يتجاهلوه ؟

— ليس العقل ولكنه الجنون ، ألم قلارلة بعد كم أن العالم
مدين للجنون ؟ !

فقال ملاطفاً :

— على أى حال قد قامت الثورة وهى تشق طريقها بعقلية
اشتراكية حقيقية ..

فحدجه بنظرة متفحمة طويلة حتى قرأ فيها معانى لم تسره
فقال :

— وهى التى لم تمس رؤوس أموال أمثالى من الناس فقد
فرضت ضريبة عادلة . ثم بنيرة عصبية :

— صدقنى أننى لست عبدا لشيء ، قليذهب كل شيء إلى
الجحيم ..

فايتسم عثمان وسأله :

— صارحنى يا عزيزى أما زلت مؤمنا كما كنت ؟

فتفكر عمر مليا فوق حافة الهاوية ثم قال :

— كذلك كنت قبل قيام الثورة ، فلما أن قامت الثورة اطمأن
بالى ثم أخذت أفقد الاهتمام بالسياسة وأولى وجهى وجهة
أخرى..

قطب متسائلا .

— وجهة أخرى ؟ !

قال بحذر :

— يحلو لمصطفى أحيانا بأن يصفها بأنها حنين جارف إلى
الماضى الفنى ..

فتساءل بامتعاض :

— وهل من تعارض بين الفن والمبدأ ؟ !

فقال وهو يزداد ضيقا وحرجا :

— ليس الأمر بهذه البساطة ..

فقال بوجوم :

— لا أفهم سوى أنك لم تعد أنت ..

كما قالت زينب ووردة من قبل ! .. قال :

— أعترف بأننى لم أمد أستحق أن أكون موضع تفكيرك .

ثم بلهجة فيها شيء من المرح :

— المهم الآن هو أن تبدأ حياتك الجديدة لتعرض ما فات ..

فقال بلهجة ثقيلة :

— أخشى ألا أجد حقا ما يعرضنى عما فات .

— هاك مكتبى تحت أمرك ، وجميع ما يلزمك للبدء ..

—إننى عاجز عن الشكر .
— بل هو دون ما تستحق ، وسوف أظل ما حييت مدينا لك
بالحياة ..
ثم بلهجة تحررت كثيرا من الخوف والحرص :
— لا شك أنك فى شوق لرؤية زينب والأسرة ومصطفى
فلنتعش الليلة فى البيت ..

وليمة العشاء حفلت بالأطعمة والأشربة والذكريات .
واغرورقت عينا زينب وهى ترحب به وشدت على يده طويلا
على حين عانقه مصطفى المنياوى عنقا حارا ، أما عليات فكان
يراهما لأول مرة . وجلست بثينة إلى جانبه على المائدة وأعلن
بدهشة أنها صورة من شباب أمها . ولما قدمت فواتح الشهية قال :
— لن أبالغ فى صنف لأذوق جميع الأصناف ..
والتفت نحو بثينة قائلا :

— قالوا لك إنى صديق قديم ، وهذا بعض الحقيقة لا الحقيقة
كلها ، أنا صديق قديم خارج من السجن ..
واعتبرتها بثينة نكتة فابتسمت فقال :
— صدقيني فأنا صديق قديم وسجين قديم .
وعند ذلك قالت زينب :

— إذن يجب أن تعلم أنك بطل سياسى لا مجرد سجين !
ورمقته بثينة باهتمام مشوب بدهشة فقال :
— بطل أو مجرم ، هى من أسماء الأضداد ..
وقال لها عمر :

— عثمان صديق قديم ، وهو زميل فى المكتب الآن ، وله
قصة طويلة سأقحمها عليك فيما بعد ، ولكنك تعرفين شيئا ولا

شك من المسجونين السياسيين ..
 فسألت بثينة عثمان :
 — أسجنك الملك ؟
 فقال والسفرجى يضع فى طبقه شريحة من الديك وكمية من
 البازلاء :
 — بل المجتمع كله ..
 ، — وما فعلت ؟
 لم يجب فقال مصطفى ضاحكا :
 — كان اشتراكيا قبل الأوان ..
 ثم وهو يغمز بعينه :
 — وكان يهوى اللعب بالقنايل
 فأتسعت العينان الخضراوان ولكن زينب قالت لعثمان
 بلباقة لتحويل المجرى :
 — بثينة شاعرة .
 فنظر إلى عمر ياسما وقال :
 — الشعر وراش فى هذه الأسرة !
 فقال له مصطفى محذرا :
 — لكن شعرها قرنيصات موجهة للذات الإلهية .
 وهم بتفجير سخرية ولكنه أمسك فى اللحظة المناسبة
 وقال بأدب :
 — أرجو أن يسعدنى الحظ بالاستماع إلى بعض هذه
 القرنيصات ..
 ونجح عمر فى إخفاء ضيقه . وتناول حمامة محشوة وقال
 لنفسه أنها لو أحسنت الطير لما أكلت . ولاحظ مجاملات المائدة
 المتبادلة بين بثينة وعثمان بارتياح . وإذا بالفتاة تسال جارها :
 — وكيف صبرت على حياة السجن ؟



ثم وهو يغمز بعينه : وكان يهوى اللعب بالقنابل ..

- صبرت لأنه لم يكن من الصبر بد . وعرفت بحسن السير والسلوك ، والظاهر أننا لا نسيء السلوك إلا في المجتمع .
وضحك ثم استطرد :
- الواقع أن السجن لا يخلو من مزية ، فالسجناء يمارسون حياة لا طبقية فيها مما نحب أن يتحقق في الحياة ..
- لكنى لم أفهم شيئاً ..
- سوف تفهمين كلامى إذا أمكن أن أفهم شعرك .
- هل قرات شعر بابا ؟
- طبعاً .
- وهل أعجبك ؟
- وقال عمر محتجاً :
- كيف بالله تاكلان وأنتما لا تكفان عن الحديث ؟ !
- ولكن عثمان أحب محادثتها ، وقد سألها :
- هل ستدرسين الآداب في الجامعة .. ؟
- العلوم .
- براهو ، ولكن كيف وأنت شاعرة ؟
- فقالت زينب بفخار :
- إنها متفوقة في العلوم .
- وقالت بثينة :
- وبابا متحمس لدراسة العلم ..
- فرمق عثمان عمر بنظرة حائرة ثم قال لبثينة :
- سوف تدركين يوماً أنه الأمل المنشود .
- ولكنى لن أتخلى عن الشعر .
- وما البأس في تلك الحال ؟ !
- وكم عاماً قضيت في السجن ؟
- حوالي العشرين !

فرمته بنظرة ذاهلة فضحك قائلاً :

— ومع ذلك فقد عرفت رجلاً فى السجن لا يرغب فى مغادرته، وكلما قاربت مدته الانتهاء ارتكب جريمة خفيفة ليجددوا له المدة ..

.. تصرف غير معقول !

فقال بلهجة جادة :

— ما أكثر التصرفات غير المعقولة !

وقال عمر معاتباً :

— ألا تريدون له أن يأكل ؟

وقدمت لهم القهوة فى حجرة الاستقبال . ولم ينقطع الحديث بين عثمان وبثينة . وحوالى العاشرة اقترح مصطفى أن يجلس ثلاثتهم بالشرفة ، وانتقل النساء إلى حجرة الجلوس ، وأراد عثمان أن يعرف ماذا صنع مصطفى بحياته فقص عليه هذا قصته بصراحة واستهانة وجراحة غير متوقعة . ولم يقنع بذلك ولكن قال :

— ها قد وقفت على أحوالنا فماذا يدور فى رأسك الكبير ؟

وكان عثمان قد عاد — بعد اختفاء بثينة — إلى الفتور

والتجهم فقال :

— على أن أبدأ حياتى أولاً كمحام .

— إنما أسأل عما يدور برأسك !

— وعلى أن أدرس ما حولى ..

— من حقلك هذا ، غير أن موقفنا القديم لم يعد ضرورة

حتمية ..

فقال بغلظة متحدية :

— أعنى أن الدولة الآن اشتراكية مخلصمة وفى هذا

الكفاية ..

وظل عمر صامتا ينظر نحو النيل الذى يجرى عاكسا أضواء
المصابيح تحت هلال مرشوق فى الأفق . وقال عثمان بمرارة :
— إذا كنت قد تغيرت فلا يعنى هذا أن الحقيقة يجب أن
تتغير ..

— لم نتغير ولكننا تطورنا ..

— إلى الورا

— الوطن تطور إلى الأمام بلا شك ..

— ربما ولكنكما تطورتما إلى الورا .

وظل عمر ينظر إلى الهلال أما مصطفى فسأله بمرح :

— ألم يقنعك ما ضحيت به من عمر ؟

فقال بحنق :

— الحقيقة لا تقنع .

— يا عزيزى لست المسئول الوحيد عنها ..

— الإنسان إما أن يكون الإنسانية جمعاء وإما أن يكون

لاشىء .

فقال مصطفى ضاحكا :

— إننى لم أستطع أن أكون مصطفى فحسب فكيف يمكن أن

أكون الإنسانية جمعاء ؟ !

— يا لفداحة الفشل ! .. لا أصدق ما حل بكما من تدهور ..

لم يستطع مصطفى أن يتجاوب معه فى حديثه ولكنه أشار

إلى عمر وقال :

— دعك من عمر فهو يعانى أزمة حادة .. لقد كره العمل

والنجاح والأسرة ..

نظر عثمان إلى عمر متسائلا ولكنه لم يحول وجهه عن

النيل ، فقال مصطفى :

— كأنما يبحث عن نفسه ..

فنقطب عثمان كالمنزعج وقال :
 — أليس هو الذى أضاعها ؟
 ثم خاطب نفسه متأوها :
 — هل انتهى الحال إلى التأملات الفلسفية !
 فقال مصطفى وكان يغالب الاستسلام للمرح طوال الوقت :
 — طالما اعتقدت أنه يريد أن يبعث جاتيه الفنى المكبوت ،
 وحاول ذلك وما زال ، ولكنه يحلم أحيانا بنشوة غريبة ..
 — زدنى فهما ..
 فتحول عمر نحوهما قائلاً :
 — أرح نفسك وأعتبره مرضاً ..
 فحدجه بنظرة ثاقبة وتمتم :
 — لعله مرض حقاً ، إذ أنك ضيعت جانبك الصحيح المعافى ..
 فقال مصطفى :
 — أو أنه يبحث عن معنى لوجوده .
 — عندما نعى مسئوليتنا حيال الملايين فإننا لا نجد معنى
 للبحث عن معنى ذواتنا !
 فتساءل عمر مضجراً :
 — ترى هل تموت الأسئلة إذا قامت دولة الملايين ؟
 — ولكنها لم تقم بعد !
 ونقل عينيه بينهما ثم قال :
 — والعلماء يبحثون عن سر الحياة والموت بالعلم لا بالمرض !
 — وإذا لم أكن من العلماء ؟
 — فلا أقل من ألا تتثير فى وجوه العاملين غبار التواضع
 والولولة ..
 فقال مصطفى :
 — إنك تقذف بالفاظ مدببة على حين يعانى صديقنا ألم

حقيقيا ..

— أنا أسف وأخشى أن أظل أسفا إلى الأبد ..

وتساءل عمر :

— ولكن ألا يسمعنا القلب إن فاتنا أن نكون من العلماء ؟

— القلب مضخة تعمل بواسطة الشرايين والأوردة ، ومن

الخرافة أن نتصوره وسيلة إلى الحقيقة ، والحق أنى أقترب من فهمك ، فأنت تتطلع إلى نشوة ، وربما إلى ما يسمى بالحقيقة المطلقة ، ولكنك لا تملك وسيلة ناجحة للبحث فتلوذ بالقلب كصخرة نجاة أخيرة ، ولكنه مجرد صخرة ، وسوف تتقهقر بك إلى ما وراء التاريخ ، وبذلك يضيع عمرك هدرا ، حتى يمرى الذى ضاع وراء الأسوار لم يضع هدرا ، ولكن عمرك أنت سيضيع هدرا ، ولن تبلغ أى حقيقة جديدة بهذا الاسم إلا بالعقل والعلم والعمل .

لم يشهد الفجر فى الصحراء . لم يشعر بالنشوة التى تحقق اليقين بلا حاجة إلى دليل . لم تطرح الدنيا تحت قدميه حفنة من تراب .

وقال مصطفى :

— إنى مؤمن بالعلم والعقل ولكن بين يدي الآن قصيدة كتبها

عمر فى الفترة الأخيرة قبل أن يخبذ الشعر نهائيا ، وهى تقطع بثورته على العقل ..

فقال مثمان وهو يتمالك أعصابه :

— يسرنى أن أسمعها ..

هم عمر بالاعتراض ولكن مصطفى بسط ورقة استخرجها

من جيبه وراح يقرأ :

لأننى لم أعب فى الهواء

ولا سكنت فى خط الاستواء



فتساءل عمر مضجراً : ترى هل تموت
الأسئلة إذا قامت دولة الملايين ؟ ..

لم يستهونى شيء إلا الأرق
وشجرة لا تنفنى للعاصفة
وبتاء لا تطرف له عيين

وساد صمت ثقيل ، ثم قال عثمان :

— لم أفهم شيئاً ..

وقال عمر :

— وأنا لم أقل شعراً ، كنت أهلوس تحت تأثير حال مرضية .
فقال مصطفى :

— ولكن الفن الحديث عموماً يتنفس في هذه الثورة .

فقال عثمان بازدياد :

— إنها أنين نظام يحتضر ..

فقال مصطفى :

— ربما كان هذا حقاً على المستوى الحضارى ولكننى أقول
كفنان قديم إنها أزمة فنية أيضاً ، أزمة فنان يبحث عن شكل
جديد بعد أن أعياء المضمون ..

— ولم أعياء المضمون ؟

— لأنه كلما عثر على موضوع وجده مبتذلاً من كثرة
الاستعمال ..

— ولكن الفنان يخفى من نفسه على موضوعه فيصير جديداً
في هذه الحدود على الأقل .

— لم يعد هذا مقنعاً في عصر الثورات الجذرية ، عصر العلم ،
وقد تبوأ العلم العرش فوجد الفنان نفسه ضمن الحاشية المنيوذة
الجاهلة ، وكم ود أن يقتحم الحقائق الكبرى ولكن أعياء العجز
والجهل ، وحز في نفسه فقدان مرشده فانقلب (غاضباً) أو (عدواً
للرواية) أو (لا معقولا) ، ولما استحوذ العلماء على الإيجاب
بمعادلاتهم غير المفهومة نزع الفنانون المنهارون إلى سرقة

الإعجاب باستحداث آثار شاذة مبهمة غريبة ، وأنت إن لم
تستطع أن تستلقت أنظار الناس بالتفكير العميق الطويل فقد
تستطيعه بأن تجرى في ميدان الأوبرا عاريا ..

ولأول مرة يضحك عثمان عاليا ، واستطرد مصطفى :
— ولذلك اخترت أبسط الطرق وأصدقها وهو أن أكون
مسليا..

وقال عمر لنفسه لماذا أتعيب نفسي في مناقشة أمور لا
تهمنى؟

خرس الفجر ، على ضفاف النيل أو فى الشرفة أو فى
الصحراء خرس الفجر ، وليس من شاهد على أنه تكلم ذات مرة
إلا ذاكرة محطمة ، وإدانة النظر والتطلع إلى أعلى واحتراق
القلب لا تجدى شيئاً ، والجوانح تنطوى على لوحة مشتعلة
صراخها يصك السماوات بلا أمل ، وسخريات الشعر وشعر
مارجريت الذهبى وعينا وردة الرماديتان وطيف زينب الخارج
من الكنيسة أشباح شاحبة تهيم فى رأس أجوف ، وضحكات
مصطفى تنعى أى أمل أما صخب عثمان فتذر نبي يبشر بالعدم ،
وخاطبت المقاعد والجدران والنجوم والظلام ، وخاصمت الخلاء ،
وغازلت شيئاً لم يوجد بعد ، حتى أراحنى أمل قائم فوعدنى
بالخراب الشامل . وقد هان كل شيء ، وتهتكت القوانين التى
تحكم الكائنات ، وتعذر التنبؤ بطلوع الشمس ، كيف أقبل بعد
ذلك أن أنظر فى ملف قضية أو أن أناقش مشكلة تتعلق بميزانية
البيت ! . وقد قلت لحجرتى المغلقة :

— أى خطأ كانت تلك الهدنة التى أرجعتنى إلى البيت !

وقلت للقطعة وهى تتمسح بساقى :

— سمعا وطاعة ، سأرحل عن المأوى المكتظ بالعواطف

المتطفلة المعوقة ..

ولم يبق من تسليات إلا أن أرقص فوق قمة الهرم أو أقفز من فوق أعلى جسر إلى قاع النيل ، أو أقفح الهيلتون عاريا ، ويقينا أن روما لم يحرقها نيرون ولكن حرمتها الأشواق اليائسة، كذلك تزلزل الأرض وتنفجر البراكين .

وقالت وردة في التليفون :

— ترى هل نسيت صوتى ؟

فقال في فتور :

— أهلا وردة ..

— ألا تزورنا ولو في السنة مرة ؟

— كلا ولكنى تحب أمرك إن كنت في حاجة إلى شيء ..

— أنا أحدثك بلغة القلب ..

فقال ممتعضا :

— القلب ! .. إنه مضخة ..

وفي لحظة ألم حاد لعن العلم المستعصى على أمثاله من البشر . وكان يتخفف من ألمه بالاستسلام لجنون السرعة وهو يندفع بسيارته في أطراف القاهرة . وتعددت رحلاته بلا هدف إلى الفيوم أو القناطر أو طنطا أو الاسكندرية . ويندفع بجنون حتى يثير الغزع والسخط . وكثيرا ما يغادر القاهرة صباحا ثم يرجع إليها صباح اليوم الثانى دون نوم . وقد يدخل دكان بقال ليسكر أو يجلس في التريانون لينام أو يشيع جنازة لا يعرفها ولا تعرفه ، أو يغلبه النوم عقب الفجر فينام في السيارة أو على شاطئ النيل حتى الصباح . وذهب مرة إلى مكتبه . وجد عثمان منهمكا في العمل بطاقة مذهلة . وسأله الرجل :

— أين كنت في الأيام الماضية ؟

فرمقه باستهانة وقال :

— في أماكن لا حصر لها ..

— أنت مرهق بلاريب ، ترى ماذا يدور فى رأسك ؟
وكان الألم قد حرره من الحرج والحياء والخوف ، حتى خوف
من عثمان قد اندثر ، فقال :
— أفكر فى تفجير الذرة فإن تعذر ذلك ففى القتل فإن تعذر
ذلك ففى الانتحار ١٩

فضحك عثمان ثم قال معترضاً :
— ولكن مكتبك ..
— لقد عاشرتنى مدة تكفى لأن تفهم ..
— حدثنى عما تنوى أن تفعله ..
فقال بتصميم :
— أن الأوان لأن أفعل ما لم أفعله فى حياتى وهو ألا أفعل
شيئاً .

— لا شك فى أنك تمزح ..
— لم أكن جاداً كما أكون اليوم ..
فتراجع عثمان أمام تجهمه الصارم وقال برقة :
— ألا تفكر فى استشارة طبيب ؟
— لا أستشير أحداً فيما يجمله ..
وزحف صمت مرهق حتى خرقة عمر متسائلاً :
— وأنت هل تقصر جهودك على المحاماة ؟
— أجل ولكنى لا أكف عن التفكير ..
— هل تنقلب مرة أخرى خطراً يهدد الأمن ؟
فقال باسم :
— هذا شرف لا أستطيع أن أدعيه بعد ..

الحق أن ما يكتنفه من طنين يمنعه من حسن الاستماع إلى
الصمت . لا بد من الذهاب . وهوبحال من التوتر يسهل معها
الجهربأى سر . لذلك قال لزينب إنه سيوكلها عن نفسه فى

التصرف فيما يملك وأنه سيختفى عن مكتبه للعاملين فيه .
وأظلمت عينها كما تغللمان تحت الضربات التي تتلقاها واحدة
بعد أخرى . وقال لها أنه صمم على ألا يشغل نفسه بشيء وأن
يزيح الدنيا عن عاتقه . ولها أن تعتبر الحال مرضا واضحا أو
غامضا ولكنه على أى حال لا يجد سبيلا أفضل من الخلو إلى
نفسه بعيدا عن الناس . وليس قى الموضع امرأة ، يجب أن
تصدقته ، ولا لهو أو عيب ، ولكنها أزمة طاحنة بلغت ذروتها ولن
تنفرج إن كان مقدرا لها أن تنفرج إلا بالطريقة التي اختارها .
وتوسلت زينب قائلة :

— ولقد تركناك وشأنك ، إذا كنت كرهت العمل فاهجره ،
وإذا كان الحنين يراودك على الفن فاستجب له ، ولكن لا تهجرنا
إكراما لأبنائك ..

وخزه الكلام ولكنه قال إنه لا فائدة ترجى من شنيه عن عزمه
الذى يسيره كالقضاء ، فقالت :

— لقد حدثنى مصطفى طويلا ، وألمنى أنك صارحت بهما
تخفيه عنى ، ولكنى انتحلت لك بعض العذر أمام نفسى لغموض
الحال التى تعانيتها ، ولا تؤاخذنى على عدم فهمى لما تبحث عنه
من معنى لوجودك أو للحياة ، ولكنى لا أجد علاقة بين ذلك وبين
انقلابك على عملك ومستقبلك وأسرتك ، لماذا لا تعود إلى
استشارة الطبيب ؟

— لذلك لم أصارحك بكل شيء .

— ولكن المرض ليس بعيب ..

— إنك تظنين بى الجشون .

قبكت حتى اضطرب جذعها ولكنه لم يلبث وقال بتصميمه :

— الحل الذى اخترت فيه الخير لنا جميعا .

فقالت بضراعة :

— اذهب إلى أى مكان حتى تسترد راحتك النفسية ثم عد إلينا ..

— ربما حدث ذلك ولكن من الأفضل أن نوطن النفس على ذهاب لا رجعة منه ..

فاسترسلت فى البكاء حتى قال :

— إن لم أفعل ذلك فإننى سأجن أو أنتحر ..

ووقفت وهى تقول :

— بثينة ليست طفلة ويجب أن تسمع رأيها .

ولكنه هتف بها :

— لا تضاعفى من عذابى ..

ومن اليسير أن يضمن ماسيقال عن مرضه ، عن عقله ، ولكن لا أهمية لذلك البتة . ولعله حق . إنه يخاطب الجماد والحيوان ويناقش الكائنات المنقرضة . ويرى أحيانا وهو ينطلق بسيارته الأرض المتماسكة وهى تنفتحت ثم تتحول إلى شبكة مترامية من الذرات حتى يضطر إلى التوقف وهو يرجف . وأحيانا وهو يرنو إلى شجرة أو النيل تتحقق للمنظور شخصية حية ، وتتخذ هيئته ملامح خفية لا يعوزها الشعور أو الإدراك ، ويخيل إليه أنه يرأفقه فى حذر ، وأنه يضع وجوده بازاء وجوده هو على مستوى الند للند ومفاخرا فى ذات الوقت بعراقته فى الوجود وخلوده النسبى فى الزمن . علام يدل ذلك ؟ ، وعلام يدل نبذه للعمل والأسرة والأصدقاء ؟ . وعليه فيجب أن يكون حذرا وإلا وجد نفسه مسوقا إلى مستشفى الأمراض العقلية .

وجاء مصطفى وعثمان للاجتماع به وأدرك أنهما دعيا إلى ذلك . ولم تنفع ضحكات مصطفى فى التخفيف من توتر الجو . ولم يكن يتكلم لدى استقباليهما . وجرى بالويسكى إلى الشرفة فشرب كأسا تحية للقاءمين . وتبادلوا نظرات طويلة وشئت بما

تخفيه من إشفاق . وظهرت زينب دقيقة واحدة لتحية الرجلين
وقالت وهى تهتم بالانصراف :

— كفنا أسعد أسرة ، ولم يكن مثله فى الرجال أحد ، ثم انهار
كل شيء ..

وأزهق تصريحها روح التردد فلم يبق بد من الانقضاض على
الموضوع . وتساءل مصطفى :

— هل حق ما سمعنا ؟

ولم يجب مكتفيا بإشارة من وجهه المصمم .

— إذن فأننت ذاهب !

أجاب بصراحة كنصل مرهف :

— أجل .

— إلى أين ؟

— مكان ما ..

— ولكن أين ؟

ولم يجب . المكان رغم لا نهائيته سجن . ومصطفى أحرق إذ
يستعمل لغة لا معنى لها .

— إذن جاء دورنا لتلقى بثا فى صندوق النزالة .

فقال مايسا :

— أمس بكت بثينة ولكنها لم تسمع خيرا من هذا الجواب .

فقال مصطفى فى جزع :

— أهذا هو آخر عهدنا بك ؟

— هو آخر عهدى بكل شيء .

— سوف أبكى بجماع روحى وجسدى .

— وأنا كابدت ما هو أشق من البكاء .

فتساءل مصطفى بحرارة :

— لاية غاية ؟

- فقال بمرارة :
- لأنطح الصخر .
- فقال عثمان :
- لا أفهم .
- ولكن مصطفى واصل حديثه قائلاً :
- ليكون ما تشاء ولكن فلتبقى بيننا ..
- يجب أن أذهب .
- فقال عثمان وهو لا يحول عنه عينيه :
- ألا ترى أن تستشير الطبيب ؟
- فأجاب بحدة :
- لست في حاجة إلى إنسان ..
- ولكنك بنيان قائم ولا يجوز أن يتهدم للاشيء .
- لست شيئاً في الواقع ..
- لا يستطيع الإنسان أن يفكر وهو بين الناس ؟
- لن أفكر أبته .
- ماذا ستفعل إذن ؟
- فقال بضيق :
- لا سبيل للتفاهم فيما بيننا .
- لكنني على ثقة من أنك تدفع بنفسك إلى الهلاك .
- أنت الذي تدفع نفسك إلى الهلاك .
- إذا كان لا بد من الهلاك فمن الأفضل أن ننضم إلى ..
- فقال ملوحاً في قرف :
- لن أنظر إلى الوراء .
- إنك تجرى في الحقيقة وراء لا شيء ..
- نشوة الفجر شيء أم لا شيء ؟ . وهل تكمن حقيقة كل شيء في اللاشيء ؟ . ومتى ينتهي العذاب !

واستطرد عثمان قائلا :
 — تصور أن يقتدى بك العقلاء في هذه الدنيا !
 — فليبق العقلاء للدنيا .
 — لكنك واحد منهم .
 فصيح على رأسه ثم كور قبضته ورمى بها إلى الأرض
 بازاء قائلا :
 — هاك عقلى تحت قدميك .
 فتساءل عثمان محزونا :
 — ما جدوى هذه المناقشة ؟
 — هى عقيمة ولا جدوى منها . وغدا لن تقع على عين ..
 وقال مصطفى متأوها :
 — لا أصدق كلمة واحدة مما يقال .
 فقال وهو يخفى عينيه فى الأرض :
 — من الخير أن تنسيانى كأن لم أكن .
 فقال مصطفى :
 — ولكنه فوق الاحتمال .
 وتصلب وجه عثمان فى حزن غاضب . وأسدل عمر على وجهه
 ستارا أصفر من اللامبالاة . وتحول شخصاهما فى نظره إلى
 مجموعتين من الذرات فامحت ذواتهما . ومن صرامة الباطنى
 أدرك أن حبهما مازال عالقا بفؤاده كاسرته : ذلك الصراع الذى
 يحمل أعصابه مالا تحتل من ضغط وتمزق . وتاقت نفسه إلى
 لحظة الانتصار المأمولة ، لحظة التحرر الكامل .

عندما يظفر قلبك بضالته سيجد نفسه خارج أسوار الزمان
والمكان . ولكنك ما زلت تشقى باللوعة فى البيت الصغير ككوخ
تنبسط من حولك الأرض المعشوشبة ، وتحيط بها على مدى
السور أشجار السرو الرفيعة المقام . متى اليوم الذى يغيب عنك
السرو وما يصدق به . يوم تسكت أشجان الليل المستقطرة من
هسيس النباتات وزفرات الصراصير ونقيق الضفادع . يوم لا
ترهقك ذكرى ماضية ويستأثر بك اللاشئ . وتتلاشى أصداء
الترانيم الهندية والتأوهات الفارسية فتستقبل شعاع النشوة
الوردى بلا وسيط . نشوة الفجر العصماء العvisية لتشدك بقوة
المجهول إلى قبة السماء . هنالك لن يعرف قلبك النوم ولا حواسك
الصحو .

وقفت بثينة رشيقة كشجرة السرو وأجالت عينيها
الخضراوين بين الحديقة والحقول المترامية وراء الأسوار والترعة
الجارية بين صفين من أشجار السنط وسألت فى عتاب :
— أمن أجل هذا ؟

ضعفت أمام طلعتها فمسحت برفق على موجات شعرها
وغمغمت :

— بل من أجل اللاشئ .

— ألا تخاف الوحشة فى الخلاء ؟

فهمست فى أذنّها :

— أرهقتنى الوحشة فى الزحام ..

وتباعدت خطوة وهى تقول :

— أمس عثمان قال ..

فقاطعها برفق :

— ألم تغطنى يا بنيتى بعد إلى أننى أصم ؟ !

فغادرت الحديقة من الباب الخشبى القصير المفروس فى
سور اللبلاب والنرجس واختفت عن الأنتظار . وتنهدت فى اعياء
وفتحت عيني فى الظلام . ماذا يعنى هذا الحلم إلا أننى لم أبرأ
بعد من نداء الحياة ؟ . وكيف أفكر فىك طيلة يقظتى ثم تعبث
بمنامى الأهواء ؟

ومائتكم مصطفى بحرارة ومرح ثم نظرتنى عينيكم نظرة حادة
وحزينة . ورأيت مكان صلعتة شعرا أسود غزيرا مسترسلا إلى
الوراء فلم تملك أن تشير إليه قائلا :

— مبارك عليك شعرك ولكن ماذا فعلت ؟

فقال بجدية غير معهودة فيه :

— تلوت سورة الرحمن عند السحر .

فسألته بدهشة :

— ومتى عرفت الطريق إلى الرحمن ؟

— منذ اعتزلت أنت العالم فى هذا المكان .

— ولم جنّت ؟

— لأقول لك أن زينب تعمل بقوة عشرة من الرجال .

— لها الله .

وألقي على البيت والحديقة والحقول نظرة ثم قال :
— ما أجدر هذا البيت بأن يكون مهد غرام أو مثوى فنان :
فجفلت قائلًا :

— ها أنت تعود إلى الهزل . فتأوه قائلًا :
— لم يبق لنا إلا الهزل نحن بنو العصر الحجري ، ولكنك
بدل أن تهزل جننت بحب اليأس ..
فتراجعت وأنا أقول :

— ألم تدرك أنني ميت الحواس ؟
فهز متكبيه استهانة وتمسك شجرة سرو حتى بدا أعلى من
البدر الصاعد فوق الأفق ، وراح يحرك يده بجرس ذي رنين شديد
حتى زحفت من الحشرات أنواع شتى ومضت ترقص حول الشجرة
في ضوء القمر . والتمعت صلعته تحت ضوء القمر .
— وتنهدت في إعياء وفتحت عيني في الظلام . ماذا يعني
الحلم إلا أنني لم أبرأ بعد من نداء الحياة ؟ وكيف أفكر فيك
طيلة يقظتي ثم تعبث بمتامى الأهواء ؟

وأمس جلت بأنحاء الحديقة مرردًا شعرا المجنون . وعندما بلغت
السور الشمالي الذي ترى وراءه التربة هزني صوت حلقى
وهو يصيح :

— أين الباب يا رجل ؟
عثمان يعتلي دراجه بخارية مزركشة العجلة والمقود بالأعلام
الصغيرة على طريقة أهل البلد في الأعياد . وقلت له دون
مجاملة :

— لا تدخل .

فنهتف :

— ألم تدرب بالمعجزة ؟ .. لقد عبرت سطح التربة بالدراجة .

— لا أو من بالمعجزات !

فضحك عاليًا وهو يقول :

— لكننا في عصر المعجزات ..

تراجعت خطوة وأنا أسأله :

— ماذا تريد ؟

فقال بجديّة وجلال :

— جئتك موفداً من الأسرة .

— لا أسرة لي .

— ألم تدرب بالمعجزة ، لقد ظهر لأسرتك فروع جديدة في القارات

الخمسة أفلا تود أن ترجع إلى ذلك المزيج العجيب من التبلاتين

والقحم ؟ !

فقلت متحدياً :

— ألم تدرب بأن أسرتنا الحقيقية هي اللاشيء ؟ !

فقال مهدداً :

— سأطاردك بفرقة كاملة من الكلاب المدربة .

وقعقع أزيز الدراجة وارتفع نباح الكلاب فتنهدت في أعياء

وفتحت عيني في الظلام . ماذا يعنى هذا الحلم ألا أنسى لم أبرأ

بعد ؟ . وكيف أفكر فيك طيلة يفتلتى ثم تعبث ..

وسهرت الليل كله في الحديقة . ولم يكن معى في الظلام

شيء ، والنجوم تومض في القبة . وساءلتها عن أشواقى .

وساءلتها متى يتحقق الحلم المنشود . وصرخت حتى اضطربت

لصراخى خلايا السور . وعاقبت كل شيء ولا شيء . ورفوت إلى

نجم متالق بين النجوم .

— أريد أن أرى .

فهمس :

— انظر .

فنفطرت فرأيت فراغا لا شيء فيه . ولكن ليس هذا ما أتوق

لرؤية وجهه فهمس :

— أنظر .

فانحسرت هالة من الظلام من رجل عار وحشى الملامح مسدل
الشعر حتى المنكبين ، يقبض بيمناه على عصا من الحجر الصلد
ويتحفر للقتال . . ووشب نحوه وحش لم تره عينى من قبل كأنه
تمساح ولكنه يقوم على أربع أرجل طوال وله وجه ثور . ودارت
بينهما معركة دامية انتهت بسقوط الوحش وتراجع الرجل
مترنحا والدماء النازفة تخضب وجهه وصدره وتسيل فوق
ذراعيه ، ولكنه رغم آلامه ابتسم .

ولكن ليس هذا ما أتوق لرؤية وجهه وأنت تعلم ، فهمس :

— أنظر .

فانجابت الظلمة عن فسحة من المكان تكتنفها غابة وينهض
فى خلفيتها جبل . وانحدر من الجبل قوم عرايا مدججون بالأحجار
فتصدى لهم آخرون من الغابة لا يقلون عنهم وحشية أو رغبة
فى القتال . ودارت معركة عنيفة وعلا الصراخ وسالت الدماء .
حتى الوحوش الكاسرة ولت لائذة بأعالي الشجر والقنوات وقمة
الجبل . وانهزم أهل الغابة فسقط منهم من سقط ، وأسر من أسر
وهلأ أهل الجبل .

ولكن ليس هذا ما أتوق لرؤية وجهه وأنت تعلم ، فهمس :

— انظر .

فرأيت جموعا تعكف على الأرض تحرثها وتزرعها ، وقوافل
تسير محملة بالبضائع ، وطائفة تعطف الخيل مدججة بالسلاح

متأهبة للقنال .

ولكن ليس هذا ما أتوق لرؤية وجهه وأنت تعلم ، فهمس :
— أنظر .

فرايت جبهة عالية يرتسم التفكير في أخايدها وصاحبها
منكب على أوراق يخط فوق صفحاتها أرقاما لا نهاية لها .
ولكن ليس هذا ما أتوق لرؤية وجهه وأنت تعلم ، فهمس :
— أنظر .

ولم أر شيئا أول الأمر . ولكنى شعرت بوثبة تبشر بالنصر
وشاع في صدري شعور غامر بالسعادة . وتذكرت الاحساس
الباهر الذي سبق الرؤيا ساعة الفجر بالصحراء . ولم أشك في
أن النشوة آتية بموسيقاها وأن العريس سيبرز وجهه . وانجابت
الظلمة عن منظر أخذ في الوضوح وويدا والتأكد ، وخفق قلبي
كما لم يخلق من قبل . وتمخض عن باقة ، هيئة باقة ورد ، غير
أن وجوها آدمية حلت محل ورودها . وما لبثت أن تبينت فيها
وجوه زينب وبثينة وسمير وجميلة وعثمان ومصطفى ووردة .
ذهلت من الدهشة وحملت فيها بإتكار . وبأخ حماس مرة واحدة
وتجرعت غصص الخيبة . ليس هذا ما أتوق لرؤية وجهه وأنت
تعلم . أين وجهه.. ولكن المنظر تشبث بكينونته . وازداد مع
الوقت دقة ووضوحا ، وتبادلت أشخاصه الألاميب . تبدت زينب
برأس وردة ووردة برأس زينب . ولبس عثمان صلعة مصطفى
ونظر مصطفى إلى بعيني عثمان . وإذا بسمير يشب إلى الأرض
متخذاً من رأس عثمان رأساً له ثم يحبو نحوي . وفزع فتعدت
والكائن المركب من سمير وعثمان يتبعني . وكلما زدت من
سرعتي زاد هو من سرعته وإصراره . وقفزت من فوق السور
الأخضر فوثب الآخر من فوقه كجرادة . وركضت بحذاء التربة
والآخر في أثرى كشور عنيد . وعدوت ، وعدوت حتى سرى

الإنهاك فى عضلاتى وانبهرت أنفاسى وخارت قواى ودار رأسى
فهويت إلى الأرض . انطرحت على وجهى فوق عشب ندى
وقدما الآخر تقتربان منى فى إصرار وكأتهما تزدادان قوة . عبث
الشیطان بالحلم . وبدل من النشوة حلت اللعنة واستحالت الجنة
ملعبا للمهرجين وتخلت عن فكرة المقاومة وأستسلمت للأرض
المعشوشبة . ورفعت رأسى قليلا لأتظر فيما حولى . سمعت
صفصافة تترنم ببیت من الشعر . واقتربت منى بقرة قائله إنها
سوف تتوقف عن در اللبن لتتعلم الكيمياء ، وزحفت حية رقطاء
ثم بصقت أنيابها السامة وراحت ترقص فى مرج . وانتصب
الثعلب حارسا بين الدجاج . واجتمعت جوقة من الخفافس وغنت
أغنية ملائكية . أما العقرب فتصدت لى فى لباس ممرضة .
وتنهدت فى إعياء وفتحت عینى فى الظلام . ماذا يعنى هذا
الحلم إلا أننى كنت أفكر فىك طيلة يقظتى ثم ..

استلقيت على ظهري فوق الحشائش رانيا إلى الأشجار
الراقصة بملاطفات النسيم في الظلام . أنتظر وإن طال الانتظار ،
وإذا بأقدام تقترب وصوت يهمس :

— مساء الخير يا عمر .

وانتصب شبح إلى جانبي . ما أكثر الأحلام ولكنني لا أرى
شيئا . وقال :

— كدت أياس من العثور عليك ، كيف ترقد هكذا ، ألا تخاف

الربوبية ؟

وجلس إلى جانبي فوق الحشائش ومد يده ولكنني تجاهلته

فقال :

— أنسييت صوتي ؟ ألم تعرفني بعد ؟

قلت متأوها :

— متى يكف الشيطان عني ؟

— ماذا قلت يا عمر ؟ بالله حدثني فأنا في غاية من الضيق .

— من أنت ؟

— يا عجباً ! .. أنا عثمان خليل ..

— وماذا تريد ؟

— أنا عثمان ! ، لقد وقع المحذور وأنا مطارد ..

تحسست جسمه بيدي وقلت :

— ليس هذا بجسم سمير فعاداً تعنى هذه المرة ؟

— سمير ! .. إنك تخيفنى ..

— ولكنى لن أخاف ولن أعود كالجنون ..

فلمس ذراعى وقال :

— بالله حدثنى كصديق ، لا تدفع بى إلى اليأس منك .

— وماذا يهم ؟

— أصغ إلى يا عمر ، إنى فى موقف خطير ، إنهم يبحثون

عنى فى كل مكان وإذا ألقوا القبض على هلكت ..

— إذن فأنت الهارب هذه المرة ..

— سأختبئ عندك حتى أتمكن من الهرب .

فتساءلت فى حزن :

— كيف جاء بك الشيطان ؟

فأجاب بلهفة :

— كنا نعرف مكانك من أول يوم ، وليس ذلك بالمطلب العسير

على صحفى مدرب كمصطفى ، وكثيراً ما حام مصطفى حول

مسكنك وأوصى بك الفلاحين الذين يجيئونك بالطعام ، ولكننا

لم نرد أن نزعجك ..

فهمت متأوها :

— هم الذين حالوا بينى وبين وجهه .

— بل لم نزعجك مرة واحدة طوالى عام ونصف عام ..

— لن أبالى حتى إذا وضعت رأسك مكان رأس سمير !

فقال بحسرة :

— ماذا أصابك ؟ .. لا .. لا ، لن أصدق أنك لم تعرفنى بعد ..

— صدق أو لا تصدق .

— أصغ إلى يا عمر ، سأصارك بحقيقة مذهلة ، لقد تزوجت



وزحفت حية وقديما ثم بصقت أنيابها السامة
وراحت ترقص في مرج ..

من بثينة !

— فليعبث الشيطان ما شاء له العبث .

فقال وهو يدنى وجهه من وجهي :

— رغم فارق السن تزوجنا ، هو الحب كما تعلم ، وفي بطنها

الآن ينبض جنين هو ابني وحفيدك !

— كما كنت ابني وعدوى !

— أما توقظك الأخبار العجيبة ؟

— كما لفظت الحية أنيابها السامة ورقصت ..

— يا للخسارة !

— هذا ما أردته دائما وما من مجيب ..

هربت على صدرى برفق وقال :

— عد إلي وعيك ، إنهم في أشد الحاجة إليك ، لقد هربت في

اللحظة المناسبة ولكنهم يجدون في البحث عني ، ولقد فتشوا

مكتبك وأخشى أن يسيئوا بك الظن ، عد لتعلن براءتك وترعى

أسرتك ، بثينة تنتظر وليدا ، ولن تراني أبدا ..

— وأنا لم أره ..

— ألا تريد أن تفهم ؟

— أموت كل يوم عشرات المرات كي أفهم ولكنني لا أفهم .

— ألم تفهم أنني زوج ابنتك وأنه مقضى على بالاختفاء أو

الموت ؟

— أجز حتى تسقط إعياء وسوف ترى الخنافس وهي تغنى ..

— يا للفظاعة ..

فهزتي بشيء من الشدة وقال بغضب :

— اصبر لا وقت للهديان ، يجب أن أفهمك كل شيء قبل أن

أذهب .

— أذهب ، لا تكدر صفو أحلامي .

— يا للتعاسة ، ماذا فعلت بنفسك ؟
 — سوف يياس الشيطان منى .
 — اصبح ، أسرتك فى خطر ، إذا اتجه الشك إليك فسيتعرضون
 للبهدة ، أنا لا أخاف على نفسى فقد نذرتها للهلاك ، ولكن يجب
 أن تعود إليهم ..
 — عد إلى الجحيم فهو مقرك .
 وهذه مرة أخرى بحقق قائلاً :
 — يجب أن أهرب ويجب أن تعود .
 — ابق إذا شئت لتترى بعينيك انتصارى .
 فهز رأسه فى أسف وقال :
 — يا لك من أحمق ، بددت مجدك فى البحث عن شيء غير
 موجود .
 — متى تصدق أنت أنك غير موجود ؟
 نهض الرجل قائماً وهو يقول :
 — أشهد أننى ينسبت منك رغم أن الياس ليس فى قاموسى .
 — هل قد ينس الشيطان ..
 ابتعد الشبح فى الظلام وهو يقول بحزن :
 — الوداع يا أخا الجهاد القديم .
 عاد السكون إلى الليل . ولكن ذلك لم يطل . سرعان ما عاد
 الرجل مهولاً وهو يقول :
 — جاءوا ، كيف اهدوا إلى بهذه السرعة ؟
 وجرى فى الحديقة نحو السور الغربى ، وسرعان ما رجع
 وهو يقول فى هياج .
 — إننى محاصر ..
 وجرى نحو المبنى الصغير . ورنوت إلى النجوم فى سلام
 نسبى . ولكن صوتاً مزعجاً ترامى صياحه وهو يقول :

— سلام نفسك ، عثمان خليل .. سلام نفسك ، أنت محاصر من جميع الجهات .

لم أسمع جوابا واتجهت عيشاى نحو مصدر الصوت الغارق فى بهيم الليل وغمغمت :
— الشيطان يتمادى فى عبثه ولكنى لست محاصرا ، بل أنا حى ..

وترامت الأصوات من جميع النواحي المحدقة بالسور ،
واقتربت رويدا ، وصاح صوت أشد أزعا جأ من الأول :
— المقاومة لا جدوى لها ولا معنى لها ..

ولم يرد المختبىء ، وغمغمت :
— كل شيء له معنى .
وإذا بأضواء كشافة تجتاح البيت من جميع الجهات فتجعله
شعلة من نور ، وضاق الخناق على المكان كله ، وصاح الصوت :
— سلام يا عثمان ، اخرج رافعا ذراعيك ..

وتأوهت متمتعا :
— متى تسكت عنى أصوات الشياطين !
وصاح الصوت الرهيب :
— ألا ترى أن أى مقاومة عبث ؟ !
فهمست :

— لا شيء فى الوجود مبث ..
واندفعت أقدام مصحوبة بصياح فى الناحية الخلفية للبيت
الصغير . وخرج شبح إلى الشرفة الأرضية المتصلة بالحديقة
وزمق :

— انتهى .. انتهى .. قبض عليه .. وانتهى كل شيء .
وهمست :
— ليس لشيء نهاية .



وتنهدت في إعياء فتحت عيني . ماذا
يعني هذا الحلم إلا أنني لم أبرأ بعد !

واندفع عديد من الأشباح فى الحديقة راكضين نحو البيت .
وعثر أحد الراكضين بساقى فسقط على وجهه ، وصاح :
— حذار يوجد آخرون ..

وانطلق عيارنارى ، وندت عنى تأوهة عميقة ، وشعرت بألم
حاد كأنه ألم حقيقى لا عبث شيطان بحلم .
وتنهدت فى اعياء وفتحت عينى . ماذا يعنى هذا الحلم إلا
أننى لم أبرأ بعد . وكيف أفكر فىك طيلة يقظتى ثم تعبت بمنامى
الاهواء ولكن مهلا . أين أنا ؟ . أين النجوم ؟ أين أشباب الحديقة
وأشجار السرو ؟ هذه سيارة تنطلق . وأنا راقد على مقعد طويل
جانبى يجلس على طرفه رجل . وعلى المقعد المواجه لى فى
الجانب الآخر من السيارة يجلس عثمان بين رجلين . لاشك أنى
ما زلت أحلم . وثم ألم فى منكبى يدفعنى إلى التأوه . وقال
صوت :

— من المؤكد أن الرصاصة اخترقت الترقوة ولكنه جرح
سطحى لا خطر منه .

ترى ماذا يعنى هذا الحلم ؟ . وأين يذهب بى ؟ . ومتى
يسكن الألم الحاد بمنكبى ؟ ومتى انتصر على الشيطان وعبثه ؟ .
ومتى تختفى من أحلامى الدنيا ومن فيها ؟ وتأوهت رغما عنى
فقال صوت :

— اصبر قليلا .

فقلت بتحد :

— زولوا لارى النجوم .

— أنت بخير .

فقلت بعناد :

— إنى بخير ما انتصرت عليكم .

— أهدأ ، سيراك الطبيب فورا .

— لا حاجة بي إلى إنسان .

— لا تجهد نفسك بالكلام .

فقلت باصرار :

— لقد تكلمت المصفاة ورقصت الحية وغنت الخنافس .

ومضى يردد ذلك بصوت خافت . وأغمض عينيه ولكن الألم لم يسكن . وتسأل متى يرى وجهه ؟ ألم يهجر الدنيا من أجله ؟

خامره شعور بأن قلبه ينفض في الواقع لا في حلم . ويأنه راجع في الحقيقة إلى الدنيا .

ووجد نفسه يحاول تذكر بيت من الشعر . متى قرأه ، وأى شاعر غناه ؟

وتردد الشعر في وعيه بوضوح عجيب :

— إن تكن تريدني حقا فلم هجرتني ؟ !

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب	تاريخ اول طبعة	تاريخ آخر طبعة
مصر القديمة	١٩٣٢	
همس الجنون	١٩٣٨	مجموعة
حبث الاقدار	١٩٣٩	رواية تاريخية
رادوبيس	١٩٤٣	رواية تاريخية
كفاح طيبة	١٩٤٤	رواية تاريخية
القاهرة الجديدة	١٩٤٥	رواية
خان الخليلى	١٩٤٦	رواية
زقاق المفق	١٩٤٧	رواية
السراب	١٩٤٨	رواية
بداية ونهاية	١٩٤٩	رواية
بين القصرين	١٩٥٦	رواية
قصر الشوق	١٩٥٧	رواية
السكرية	١٩٥٧	رواية
اللىص والكلاب	١٩٦١	رواية
السمان والخريف	١٩٦٢	رواية
دنيا الله	١٩٦٢	مجموعة
الطريق	١٩٦٤	رواية
بيت سوء السمعة	١٩٦٥	مجموعة
الشحاذ	١٩٦٥	رواية
ثورة فوق النيل	١٩٦٦	رواية
مصر امار	١٩٦٧	رواية
خمارة القط الاسود	١٩٦٩	مجموعة
تمت المظلة	١٩٦٩	مجموعة
		العاشرة
		العاشرة
		العاشرة
		العاشرة
		الثانية عشرة
		العاشرة
		العاشرة
		الثانية عشرة
		الرابعة عشرة
		الثانية عشرة
		الثانية عشرة
		الحادية عشرة
		التاسعة
		الثامنة
		الخامسة
		الثامنة
		السابعة
		السابعة
		السادسة
		الخامسة
		السابعة
		السادسة

اسم الكتاب	تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة
حكاية بلا بداية ولا نهاية	١٩٧١	السابعة ١٩٨٧
شهر العسل	١٩٧١	السادسة ١٩٨٢
المرايا	١٩٧٢	الخامسة ١٩٨٠
الحب تحت المطر	١٩٧٣	الرابعة ١٩٨٠
الجريمة	١٩٧٣	الخامسة ١٩٨٤
الكرنك	١٩٧٤	السابعة ١٩٨٦
حكايات حاورتنا	١٩٧٥	السادسة ١٩٨٦
قلب الليل	١٩٧٥	الثالثة ١٩٨١
حضرة المحترم	١٩٧٥	الرابعة ١٩٨٣
ملحمة الخرافيش	١٩٧٧	الرابعة ١٩٨٥
الحب فوق هضبة الحرم	١٩٧٩	الرابعة ١٩٨٧
الشیطان يعط	١٩٧٩	الرابعة ١٩٨٧
عصر الحب	١٩٨٠	الثانية ١٩٨٧
أفراح القبة	١٩٨١	الثالثة ١٩٨٧
لهاى ألف ليلة	١٩٨٢	الثالثة ١٩٨٧
رأيت فيما يرى النائم	١٩٨٢	الثالثة ١٩٨٧
الباقى من الزمن ساعة	١٩٨٢	الثانية ١٩٨٥
أمام العرش (حوار بين الحكام)	١٩٨٣	الثانية ١٩٨٥
رحلة ابن بطوطة	١٩٨٣	رواية
التنظيم السرى	١٩٨٤	مجموعة
العائش فى الحقيقة	١٩٨٥	رواية
يوم مقتل الزعيم	١٩٨٥	رواية
حديث الصباح والمساء	١٩٨٧	رواية
صباح الورد	١٩٨٧	مجموعة
تحت الطبع		
قشتمر		رواية
القجر الكاذب		مجموعة

رقم الايداع ٢٠٥٤

الترقيم الدولي ٦ - ٠١٠ - ٣١٦ - ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - النجالة



الشمس

دار مصر للطباعة
محمد جوده السحار وشركاه

To: www.al-mostafa.com